
روايات مصرية للجيب
2
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
الخدعة الكبرى
وموضوعات أخرى

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حـــروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنـــهارًا .

ولكـــن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بـــها سوى أصحابـــها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق



صانع الجواسيس

(سيرة واقعية)

من هو أشهر رجل مخابرات فى العالم أجمع بلامُنازع ؟

لو أنك طرحت هذا السؤال على أية شريحة من البشر ؛ فى أيَة دول فى العالم ، لحصلت بسرعة على أول جواب يقفز إلـى الأذهـان ، وأول اسم يرتبط بالوجدان ، عند الحديث عن عالم المخابرات ..

أية مخابرات ..

(جيمس بوند) ..

فذلك الجاسوس البريطانى، الذى يحمل رقم صفر صفر سبعة، مع تصريح بالقتل، ويرتكب كل خطايا وموبقات الدنيا، فى سبيل خدمة التاج، صار منذ الخمسينيات وحتى الآن، أشهر جاسوس تتداول اسمه الألسن، وتربح منه السينما الملايين والملايين كل عام، وهو يواجه أصابع ذهبية، وعيون ذهبية، ومسدسات ذهبية، دون جرام واحد من الفضة ..

الكل يعرفه ..

ويحفظ اسمه ورقمه عن ظهر قلب ..

ولكن قليلين فقط من يعرفون اسم مبتكره (أيان فليمنج) ..

والأقل جدًا .. بل والنُدرة، هم من يعلمون أن (فليمنج) نفسه كان جاسوسًا مُدهشًا، ورجل مخابرات لايشق له غبار، ولاتفشل واحدة من خططه وأفكاره المبتكرة قط ..

و(أيان فليمنج) هذا ولد لأبوين بالغى الثراء، من أبناء الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية، وقضى الشطر الأكبر من عمره كطالب مواظب، أنيق الملبس والأسلوب، إلا أنه اشتهر دائمًا بالنشاط الزائد، والانخراط فى كل الأنشطة الممكنة، من جماعات الخطابة إلى الكشافة البحرية، كما أظهر ميلاً ملحوظًا للمغامرة والمخاطرة، وخاصة فى فترات المعسكرات الصيفية والرحلات الخلوية ..

ولكن كل هذا لم يشفع له فى النجاح أو التفوق، إذ إنه - وعلى الرغم من كل هذا النشاط - كان يُعانى كسلاً بالغًا كلما تعلق الأمر باستذكار دروسه وآداء واجباته، حتى انتهى به الأمر إلى الفصل من المدرسة الفخمة، التى ألحقه بها والده، بسبب مغامراته التى تجاوزت كل الحدود المعقولة ..

ولأن والدته كانت إنجليزية عريقة، من طراز لايقبل الفشل، فقد قررت أن تلعب دور الأب والأم معًا، بعد وفاة زوجها، وأجبرت (آيان) على الالتحاق بإحدى

الكليات العسكرية ، التى قبلته بين صفوفها ، احترامًا لذكرى والده ، ولوساطة أقرباء أمه ، الذين يحتلون كلهم مكانة سياسية رفيعة ..

والتحق (فليمنج) بالكلية العسكرية البريطانية ، إلا أن هذا كان آخر شىء يُناسب طبيعته ، إذ لم يلبث أن عاد إلى عبثه ومغامراته ، وتورط فى مشكلة عاطفية مع زوجة قائد الكلية ، مما دفع هذا الأخير إلى فصله بلا رجعة ..

وهكذا استقر الحال بالشاب المغامر فى شركة السمسرة والأوراق المالية ، التى تمتلكها أسرته ، والتى مازالت تحمل لقبها حتى أيامنا هذه ، فى بورصة الأوراق المالية فى (لندن) ..

كان هذا فى صيف ١٩٣٩م ، عندما بلغ (فليمنج) الواحدة والثلاثين من عمره ، وحصل على منصبه الرفيع فى الشركة ..

والعجيب أن (فليمنج) قد حقق نجاحًا مُدهشًا ،

خلال فترة عمله القصيرة ، ووضع بعض الأفكار المبتكرة ، التى ضاعفت الأرباح مرتين ، قبل أن يمل هذا العمل المكتبى ، ويقدم استقالته إلى أمه ، التى جن جنونها ، وحاولت منعه من هذا ، وإقناعه بالعودة إلى الشركة ، ومواصلة خطة زيادة الأرباح ، إلا أنه فرّ من (لندن) كلها ، هربًا من مواجهتها ، وراح يقضى بعض الوقت فى منزل تمتلكه الأسرة فى (ليفربول) ..

والعجيب أن قراره هذا كان مدخله إلى عالم المخابرات ، الذى قدّر له أن يضع عليه بصمته ، ويحفر فيه اسمه بحروف من ذهب ..

ففى (ليفربول) التقى (فليمنج) بصديق قديم لأسرته ، وهو الأميرال (جون جودفرى) ، الذى كان يشغل - فى تلك الفترة - منصب رئيس المخابرات البحرية البريطانية ، والذى لفت الشاب انتباهه ، بنشاطه الجم وذكائه الواضح ، وعقليته الإبداعية الخلاقة ..

ولأن (جودفرى) كان على ثقة ـ بحكم منصبه وخبراته ـ فى أن الحرب آتية لاريب، فقد وضع (فليمنج) فى رأسه كما يقولون، وراح يدرس تصرفاته وأسلوبه، طوال فترة وجودهما معًا فى (ليفربول)، ثم لم يلبث أن واجهه ذات صباح، قائلا:

ـ (آيان) ... هل تعلم فيم أعمل بالضبط ؟!

ابتسم الشاب ابتسامة خبيثة، وهو يُجيب:

ـ لا أعتقد أن هذا يخفى على أحد يا أدميرال.

بدا له (جودفرى) صلبًا صارمًا، جامد الوجه والملامح كعادته، وهو يقول:

ـ هل ترغب فى العمل معى إذن ؟!

أجاب الشاب فى سرعة:

ـ ومن يمكن أن يرفض أمرًا كهذا ؟!

وهكذا، وبتلك البساطة، صار طالب الكلية العسكرية

المفصول، وسمسار البورصة السابق، يحمل رتبة ضابط فى البحرية ..

ولقب رجل مخابرات بريطانى ..

وما أن اندلعت الحرب العالمية الثانية، حتى تفجرت كل المواهب الخلاقة فى أعمال (آيان فليمنج) ..

وكل الأفكار المجنونة ..

فى البداية، خُيل للأدميرال (جودفرى) أنه قد أساء الاختيار، ووقع على أرستقراطى مخبول، لا تتفق أفكاره قط مع الواقع والعقل ..

ولكنه انتبه فجأة، إلى أن (فليمنج) هذا رجل مخابرات عبقرى، وأنه ما خلق إلا لهذا المضمار بالذات ..

فكل أفكار (فليمنج) كانت تصدم سامعيها فى البداية، ثم لا تلبث أن تجد صدى فى عقولهم، ومنها إلى قلوبهم، وتقفز بعدها لتحتل مكانة لا مثيل لها، فى عالم الابتكار والنجاح ..

ولعل أبرز هذه الأفكار كان الإذاعة الألمانية الموجهة ..

فطوال فترة الحرب ، كان الألمان يستمعون إلى إذاعة ألمانيا ، ناطقة بالعامية ، تنقل إليهم أخبار قادتهم وجبهتهم ، على نحو يوحى بأن فريقًا من جنرالات الجيش ، المعارضين للنازية هم من يبثها ، من مكان مجهول داخل (ألمانيا) وخاصة مع خطبها الساخنة ، التى تدعو لرفعة (ألمانيا) ، وتهاجم الحلفاء وقادتهم ، إلى الحد الذى وصفت فيه رئيس الوزراء البريطانى (وينستون تشرشل) بأنه يهودى بدين مُصاب بالأمراض التناسلية ، وأشبه بالخنزير المريض ..

وربّما كان هذا الوصف ومايشبهه ، هو السبب فى كل ماتصوّره الألمان عن تلك الإذاعة المجهولة ، والسبب فى ارتباطهم بها بشدة ، دون أن يخطر ببال أحدهم ، حتى قادتهم أنفسهم ، أنها إذاعة بريطانية بحتة ، يتم بثها من قلب (لندن) ، تحت إشراف (فليمنج) نفسه ،

الذى كان يدس السم فى العسل يوميًا ، ويتسلل إلى أعماق الروح المعنوية الألمانية ، لينسفها نسفًا ، من خلال قصص ملفقة عن قادة الألمان وساستهم ، وعن الجنرال المسرف ، الذى ابتاع لصديقته معطفًا من الفراء ، يكفى ثمنه لإطعام لواء كامل ، والآخر الذى ترك المعركة على الجبهة الروسية ، لينعم بالدفء فى البلقان ، تاركًا جنوده يغرقون فى الجليد حتى آذانهم ، وأقدامهم تتجمد فى البرد .. و ... و ...

والطريف أن (فليمنج) قد تعرض للمساءلة ، بسبب وصفه للساسة البريطانيين ، والذى يبدو بذيئًا للغاية ، عندما يلقى بالعامية الألمانية ، إلا أنه دافع عن نفسه بأنه لو لم يفعل هذا لما استطاع جذب الألمان إلى سماع إذاعته ، أو إقناعهم بكل ما يدسه لهم من أخبار ..

وانتهى التحقيق بحصول (آيان فليمنج) على مكافأة سخية ، وإطلاق يده فى نسج المزيد من تلك الأفكار المجنونة ..

وهذه النقطة الأخيرة بالذات كانت أكبر مكافأة حصل عليها (فليمنج) فى حياته كلها ..

أن تُطلق يده فى الأفكار والابتكارات ..

مهما بلغ جنونها ..

ومن هذا المنطلق بدأ (فليمنج) عملية جديدة، أطلق عليها اسم (العرّاف) ..

ولقد اعتمدت هذه العملية على دراسة شخصية (رودلف هيس)، نائب (أدولف هتلر)، الذى يبدى اهتمامًا دائمًا بعلم الفلك وقراءة الطالع، ثم الاستعانة باثنين من علماء الفلك السويسريين، الذين تم تجنيدهم لحساب المخابرات البريطانية، لتقديم النصائح وقراءة الطالع بصورة دائمة للنائب (هيس)، وعلى نحو كان يعده (فليمنج) بنفسه، بحيث أصبح (هيس) على اقتناع شديد بأن اللحظة الحاسمة قد حانت، وبأنه لو سعى للسلام، فسيصبح أعظم رجال القرن على الإطلاق ..

وكان كل هدف (آيان فليمنج) هو أن يزرع بذرة الشقاق بين (هتلر) ونائبه، بحيث يؤدى هذا إلى تفتيت الجبهة النازية، وضعف قيادتها، وانهيارها فى النهاية ..

ولكن يبدو أن خطة الشاب كانت بارعة أكثر مما ينبغى ..

فالأمر لم يقتصر على الشقاق فحسب، وإنما غامر (هيس) بأن استقل طائرته بنفسه، ليهبط فى إنجلترا، ويدعو للسلام، ولكن البريطانيين أسروه هناك وظلّ فى السجن كمجرم حرب، حتى مات فى عام ١٩٨٩م ..

وفى أواخر عام ١٩٤١م، تم نقل (فليمنج) إلى محطة المخابرات البريطانية فى (نيويورك)، كمحاولة لإقناع (أمريكا) بدخول الحرب ..

ولأن الأمريكيين لايقدمون شيئًا بلا مقابل، فقد طلبوا من (فليمنج)، فى أثناء وجوده فى (نيويورك)،

أن يتعاون مع رجلهم (ويليام دونوفان)، مستشار الرئيس الأمريكى (روزفلت)، لوضع بذرة إنشاء وكالة استخبارات، كانت نواة جهاز المخابرات الأمريكية المركزية الحالى ..

ولكن (آيان فليمنج) ـ بكل ما يتمتع به من نشاط وحب دائم للمغامرة ـ لم يكن من الممكن أبدًا أن يكتفى بهذا الدور البسيط فى عالم المخابرات، من وجهة نظره، لذا فقد نجح فى التسلل إلى العالم السفلى فى (نيويورك)، وجند عددًا من المجرمين واللصوص، وخبراء فتح الخزائن للعمل لحسابه، ثم استخدمهم لفتح خزانة معدنية خفية، فى مكتب القنصل العام اليابانى، ليقوم هو بتصوير كل أوراق رموز الشفرة السرية داخلها ..

ولقد كانت مفاجأة مذهلة للبريطانيين، أن تصلهم هذه الشفرة، التى بذلوا جهدًا خرافيًا فى السابق للحصول عليها، دون أن يطلبوا من (فليمنج) هذا .. ودون أن يعاونه أى من رجالهم ..

وكالمعتاد، تم التحقيق مع (فليمنج)، لاستعانته بمجرمى ولصوص الشوارع، وتعرض للوم والتقريع كالمعتاد، ولكنه دافع عن نفسه بأن هؤلاء القوم لا يشغلون رءوسهم بالسياسة وتعقيداتها، ثم إنهم تصوّروا طوال الوقت أنهم جزء من عملية تجسس صناعية، وليست سياسية ..

وكان من العسير أن يُعاقب (فليمنج) بعد عملية ناجحة كهذه، لذا فقد اكتفى رؤساؤه بتوجيه اللوم إليه، وإعادته إلى (لندن) ليواصل عمله وأفكاره المجنونة هناك ..

وفور عودته إلى الوطن أغلق (فليمنج) على نفسه باب مكتبه، وراح يعد أكبر فكرة مجنونة فى حياته ..

وبعد أسبوع كامل من الدراسة والتفكير، خرج (فليمنج) لرؤسائه بفكرة إنشاء الوحدة رقم (٣٠) .. وهذه الوحدة هى فرقة خاصة من (الكوماندوز)

تتبع المخابرات البحرية مباشرة ، ويتم تدريبها على نحو خاص للغاية ، بحيث يمكنها القيام بعمليات مستحيلة ، خلف خطوط العدو ..

وفى ذلك الحين ، كانت الفكرة عجيبة بالفعل ..

ومجنونة إلى أقصى حد ..

ولكنها ، وككل أفكار (فليمنج) ، وجدت صدى خاصًا فى نفوس الجميع ، وخاصة مع دراسة مدى الفائدة الجمّة ، التى يمكن أن تعود من إنشاء وحدة كهذه ..

وأخيرًا صدر القرار ..

وولدت الوحدة الهجومية رقم (٣٠) .

وطوال ما تبقى من زمن الحرب ، قامت الوحدة رقم (٣٠) بعمليات انتحارية مدهشة ، لا يصدقها عقل ، خلف خطوط العدو ..

وبالذات فى الجبهة الفرنسية ..

ولعل أهم وأخطر عملياتها ، التى تمت ، تحت قيادة (آيان فليمنج) مباشرة ، كانت عمليات (محطة الرادار) ، و(الأرشيف البحرى) ..

ففى عام ١٩٤٤م ، قاد (فليمنج) وحدته القتالية ، وهبط معها خلف خطوط العدو ، حيث قامت الوحدة بالسيطرة على محطة رادار ألمانية كبيرة ، ظلّت ترصد الطائرات البريطانية ، وتحبط هجومها لفترة طويلة ، وتم الاستيلاء عليها لفترة طويلة ، وتم الاستيلاء عليها بالكامل ، وأسر حاميتها المكونة من أربعين ضابطًا وثلاثمائة جندى ، ونقلت معداتها كلها إلى (لندن) ، حيث تمت دراستها وإعادة تركيبها ..

وقبل أن يلتقط رؤساؤه أنفاسهم ، من انبهارهم بتلك العملية المدهشة ، التى خسرت الوحدة رقم (٣٠) خلالها فردًا واحدًا ، فاجأهم (فليمنج) بعملية

(الأرشيف البحرى) التى كادت أن تذهب بعقول الألمان ، والتى أثارت جنون (أدولف هتلر) نفسه ..

فمع معاناتهم من دقة وبراعة المخابرات البحرية الألمانية ، كان البريطانيون يبذلون جهدًا مضنيًا ، لكشف الجواسيس الألمان ، ودراسة أساليب تفكيرهم ، ومحاولة تحليل خططهم ونظمهم ، والعمل على تجنيد بعضهم ، لنقل ما يمكن نقله من وثائقهم وسجلاتهم السرية إلى البريطانيين ..

ولأن (فليمنج) قد اعتاد التفكير بأسلوب مبتكر ، مختلف ، خلاَّق ، فقد طرح سؤالاً بدا بالغ الغرابة ، فى أول اجتماع عام :

ـ لماذا لاتقوم الوحدة (٣٠) بعملية انتحارية ، للاستيلاء على قسم الأرشيف البحرى الألمانى بالكامل ، وعلى سجلاته التى تعود إلى عام ١٨٧٠م ؟!

ومع غرابة الفكرة وجنونها ، احتاج الأمر إلى أسبوعين كاملين ، من البحث والفحص ، والمناقشة ، والمراجعة قبل أن يوافق الرؤساء على الخطة ، ويصدر الأمر بتنفيذها بعد أن قرر الخبراء أن الخسائر ستبلغ أربعين فى المائة على الأقل من وحدة الهجوم .

وعندما اجتمع (فليمنج) بوحدته ، أبلغهم أن الخسائر ستبلغ سبعين فى المائة ، ثم طلب منهم قبول أو رفض المهمة ، ووعدهم بعدم سؤالهم عن الأسباب .

ووافق الجميع فورًا ..

وبلا استثناء ..

وبعقليته الخلاقة ، راح (فليمنج) يضع خطة الاستيلاء على الأرشيف ، ووضع رسمًا لتوربين بحرى خاص ، تتم قيادته كالدراجة البخارية تحت الماء ، بحيث يمكن لرجاله بوساطته قطع مسافات طويلة تحت سطح البحر ، دون أن يمكن رصدهم ..

وفى (لندن)، جلس (جودفرى) وفريق قادة المخابرات البحرية يحبسون أنفاسهم عندما انطلق (فليمنج) ورجاله لتنفيذ العملية.

وراح الوقت يمضى، ويمضى، دون أن تصل رسائل، تُشير إلى نجاح أو فشل العملية..

وأخيرًا.. وفى الخامسة وسبع دقائق صباحًا، وصلت رسالة (فليمنج)..

رسالة مختصرة للغاية.. «نجاح تام.. الخسائر تساوى صفرًا..»

وكان الخبر مذهلاً، حتى إن الرجال لم يمكنهم تصديقه، حتى عادت الوحدة (٣٠) إلى (لندن) بنفسها..

لقد نجح (فليمنج) ورجاله نجاحًا مذهلاً، واستولوا على كل سجلات البحرية الألمانية، دون أن يخسروا رجلاً واحدًا.. بل، ودون حتى إصابة واحدة..

وكان هذا أغرب من أن يحدث، حتى فى الروايات الخيالية..

أو ربّما كان فعلاً قدريًا مقصودًا، لتتويج أعمال (فليمنج)، لأنها كانت آخر عملية له، قبل أن تستسلم ألمانيا، وتضع الحرب أوزارها..

ومع نهاية الحرب، عاد (آيان فليمنج) يشعر بالملل مرة أخرى، على الرغم من أنه ظلّ يطرح أفكاره المبتكرة، ويقوم بأعماله الخلّاقة، فى كل مكان تبلغه المخابرات البريطانية، من شمال (إفريقيا) وحتى غرب (إسبانيا)..

ولكن لكل شىء نهاية..

لقد استغنت المخابرات عن خدماته أخيرًا، ومنحته وسامًا، ومكافأة كبيرة، مع خطاب شكر، يُشير إلى ما قدّمه للوطن فى زمن الحرب..

وهكذا، عاد (آيان فليمنج) إلى شركة أسرته ليُمارس أعمال السمسرة، ويُضاعف من أرباحها.

إلا أن هذا ظلّ بالنسبة إليه سخيفًا مملاً ومضجرًا إلى أقصى حد..

لذا، فقد راح (فليمنج) يشغل نفسه بكتابة روايات

عن الجاسوسية ، بطولة عميل سرى خاص ، منحه اسم (جيمس بوند) وراح يغزل حوله الأساطير ، التى اقتبسها من خبراته السابقة ، ومن تاريخ حياة بعض الرجال ، الذين عرفهم فى حياته ، ومن خلال عمله ..

وحتى فى هذا ، فاق (آيان فليمنج) الجميع ، وصارت الشخصية التى ابتكرها هى أشهر شخصيات عالم الرواية والخيال ، من أقصى العالم إلى أقصاه ، وتُرجمت أعماله إلى ست عشرة لغة ، خلال عشرة أعوام فحسب ..

وفى عام ١٩٦٤م ، وقبل أن يبلغ السادسة والخمسين من العمر ، مات (آيانِ فليمنج) ميتة هادئة فى فراشه ، تاركًا خلفه تاريخًا مجيدًا ، لا يعلم عنه العامة سوى ذلك الجزء المفرط فى الخيال فحسب ، والذى استحق بسببه أن يحظى بلقب ، استحق كل حرف منه عن جدارة ..

لقب صانع الجواسيس ..

* * *



مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصورّ حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجردّ كلمات ..

مجردّ مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٢ ـ عالم بلا حدود ..

منذ اليوم الأولّ ، بل منذ اللحظة الأولى ، لالتحاقى بهذا العالم العجيب ، راحت الأحداث تتوالى بسرعة مدهشة ، وبإيقاع جعل أنفاسى تتلاحق ، على نحو لم يحدث لى من قبل قط ..

كان من الواضح أنهم لا يحتاجون إلى إجراء أية تحريات بشأنى ، قبل قبولى وسط صفوفهم ، وأنهم قد أجروا بالفعل كل التحريات اللازمة ، قبل أن أضع توقيعى على أوراق الالتحاق ..

ففور التوقيع على طلب الالتحاق ، نهض ذلك المدنى من خلف مكتبه ، وارتسمت على وجهه الوسيم ابتسامة عريضة ، وهو يلتقط ذراعى فى رفق ، قائلاً :

ـ الآن يمكننا البدء أيها الزميل .

لسبب ما ـ وقتها ـ بدا لى مصطلح (الزميل) هذا

عجيبًا ، وغير مألوف على الإطلاق ، إلا أننى ، وربما للسبب نفسه ، لم أعترض أو أعلق ، وإنما تركته يقودنى إلى مكتب آخر أكثر اتساعًا ، حيث استقبلنا رجل قوى البنية ، حازم الملامح ، نهض يستقبلنى ، قائلاً فى شىء من الصرامة :

ـ مرحبًا بك بين الصفوف .

وعندما تصافحنا ، شعرت بقوة أصابعه على راحتى ، وهو يتابع :

ـ اليوم ستتعرَّف المكان ، وتلتقى بالزملاء ، وتتعلَّم مبادئ عملك الجديد ، واعتبارًا من السابعة ، من صباح الغد ، ستلتحق بمدرسة المخابرات .

لم يرق لى استخدامه لفظ (مدرسة) هذا ؛ فقد بدا لى أنه لايتناسب قط مع عمرى وخبراتى ..

إلا أننى ، وفى هذه المرة أيضًا ، لم أناقش أو أعترض ..

شىء ما فى أعماقى ، جعلنى أدرك أنهم يعرفون جيدًا ما ينبغى فعله ..

حتى بالنسبة لى ..

وعندما غادرنا مكتب ذلك الحازم ، ربَّت الهادئ على كتفى ، قائلاً :

ـ أفضل ما ينبغى أن تفعله الآن ، هو أن تلقى خلف ظهرك كل ما تعلَّمته فى الماضى ، وأن تعتبر نفسك تلميذًا مستجدًا ، فى عالم جديد ، ينبغى أن تبذل قصارى جهدك ، لاستيعاب كل قواعده وأسراره .

قالها ، ونحن ندلف إلى مكتب صغير ..

صغير إلى درجة مدهشة .

كان مجرَّد حجرة مربَّعة ، لايزيد طول ضلعها على مترين ونصف المتر ، بها مكتب صغير بسيط ، خلفه نافذة كبيرة ، مغطاة بستارة من شرائح البلاستيك ، وأمام المكتب مقعدان صغيران ، والباب فى مواجهته مباشرة ، وإلى جوار الباب دولاب وثائق تقليدى ، ولكنه مغلق بقفل ضخم ..

وعندما لاحظ الهادئ أننى أتطلع فى فضول إلى باب صغير ، يجاور المكتب ، ربَّت على كتفى مرة أخرى قائلاً :

- هناك حجرة نوم صغيرة وحمام، ملحقان بهذا المكتب، فالأمر يحتاج أحيانًا إلى عمل متواصل.

أومأت برأسى متفهمًا، وأنا أغمغم فى حذر:

- أعلم هذا.

ابتسم ابتسامة واسعة أخرى، ثم أشار إلى سطح المكتب، قائلاً فى حزم:

- هذا الجهاز الصغير خاص بالاتصالات، وستجد فى درج المكتب ورقة تحوى تعليمات تشغيله، وأرقام المكاتب والجهات، التى تحتاج إلى الاتصالات بها داخليًا.

جلست خلف المكتب، غير مصدّق أننى قد أصبحت وحدة فى المنظومة، التى حلمت طيلة عمرى بالانضمام إليها، فى حين غادر الهادئ الحجرة، وهو يشير بيده، قائلاً:

- فى الدرج الآخر، ستجد كتيب القواعد الأساسية.. استوعبه جيّدًا؛ فسيفيدك كثيرًا، فى المرحلة القادمة.

وعندما أغلق الباب خلفه، وتركنى وحدى، داخل حجرة مكتبى الصغيرة، وجدت نفسى ألتقط نفسًا عميقًا، وأسترخى فى مقعدى، أو أحاول هذا على الأقل، وعقلى ينطلق بعيدًا..

بعيدًا جدًا..

إذن فقد أصبحت بالفعل رجل مخابرات..

أصبحت واحدًا منهم..

وفى ذهنى، ارتسمت عشرات الصور والمشاهد، لكل ماشاهدته من أفلام السينما القديمة والحديثة، عن رجال المخابرات، وطبيعتهم، وعملياتهم، و....

قاطعتنى فجأة دقات هادئة، على باب حجرتى الصغيرة، فانتزعتنى من أفكارى دفعة واحدة، وجعلتنى أعتدل على مقعدى، قائلاً بلهجة، حملت حتمًا شيئًا من انفعالى:

- أدخل.

مرَّت لحظة عجيبة من الصمت ، تصوَّرت خلالها أن الطرقات التى سمعتها كانت مجرَّد هلاوس سمعية ، صنعها خيالى المحموم ، إلا أن الباب لم يلبث أن تحرَّك فى بطء ، ليظهر خلفه رجل نحيل ، له ملامح أشبه بالقنفذ ، وصوت رفيع حاد رصين ، انطلق من بين شفتيه ، وهو يقول :

ـ معذرة ، ولكنك تحتاج إلى هذه .

تنحنحت ، فى محاولة للتغلُّب على توترى ، وأنا أقول :

ـ تفضل .. إننى أحتاج لمعرفة ألف شىء هنا .

لم يعلِّق على عبارتى بحرف واحد ، وهو يتقدَّم نحو مكتبى الصغير ، ويناولنى بطاقة تحمل رقمًا كبيرًا واضحًا ، وشريطًا ممغنطًا على جانبها ، وهو يقول ، بنفس الرصانة الحازمة :

ـ هذه تتيح لك الحركة ، فى حدود النطاق المسموح به .

كررَّت خلفه ، فى حيرة حذرة :

ـ النطاق المسموح به ؟!

أجاب فى سرعة ورصانة :

ـ كل شخص هنا ، يتمتَّع بحرية الحركة ، من خلال نطاق خاص ، وفقًا لموضعه ووظيفته ، وصلاحياته الأمنية .

سألته فى حيرة أكبر :

ـ وكيف أعرف النطاق الخاص بى ؟!

أجاب بنفس السرعة :

ـ لاداعى لأن تعرف :

حدَّقت فيه بدهشة مستنكرة ، فتابع مفسرًا :

ـ البطاقة ستعرف .

بدا لى الجواب مبهمًا فى البداية ، وأكثر إثارة للحيرة ، إلا أنه سرعان ماشرح لى أن ذلك الشريط

المغناطيسى ، فى جانب البطاقة ، يحوى شفرة كودية خاصة ، وتلك الشفرة تحدد الأماكن المسموح بدخولها ، بحيث تنفتح أبوابها ، فور تمرير البطاقة فى جهاز خاص يتصل بها ، فى حين لاتستجيب الأبواب غير المسموح بعبورها للأداء نفسه ..

وأعترف بأننى قد انبهرت بالفكرة ، التى بدت لى - عندئذ - عبقرية ، ولقد بدا انبهارى هذا واضحًا حتمًا ، وأنا أسأله :

- وماذا لو أنه لاتوجد أبواب ؟!

ولأوّل مرة منذ رأيته ، لمحت على شفتيه شبح ابتسامة ، وهو يقول :

- فى هذه الحالة لاتوجد موانع .

قالها وجه القنفذ ، دون أن يزيد حرفًا واحدًا ، ثم غادر الحجرة فى سرعة ورصانة ، اتضح لى فيما بعد أنهما جزء أساسى فى شخصيته ، وتركنى وحدى ،

فى حجرتى الصغيرة ، أفحص البطاقة الصغيرة ، التى لاتحتوى اسمى أو صورتى ، أو ....

« هل تسمح لى بالدخول ؟! »

فوجئت بالصوت داخل الحجرة ، فرفعت عينىّ إلى صاحبه بحركة حادة ، ووقع بصرى على رجل عريض المنكبين ، باسم الثغر ، أشار بملف فى يده ، وهو يقول بلهجة أقرب إلى المرح ، لاتتناسب قط مع ضخامته :

- لقد طرقت الباب ، وأنت لم تسمعنى ؛ وهذا أمر سيئ ، بالنسبة لرجل مخابرات يبدأ عمله .

لم يرق لى أيضًا أن يوحى بغفلتى ، فملت إلى الأمام ، قائلاً بشىء من الصرامة :

- هل لى أن أعرف ، من أنت بالضبط ؟!

انطلقت من حلقه ضحكة صافية ، وهو يضع الملف أمامى ، قائلاً :

- رائع .. بدأت تعتاد المهنة .

قلت فى صرامة أكثر :

ـ إنك لم تجب سؤالى .

فوجئت به يطلق ضحكة عالية مجلجلة ، ثم يربِّت على كتفى بحرارة شديدة ، هاتفًا بمنتهى المرح :

ـ رائع .. رائع ..

ثم استدار يغادر المكان ، دون أن يجيب سؤالى ، وهو يكمل ، فى بساطة مدهشة :

ـ هذه واجباتك المنزلية لليوم الأول .. راجعها جيدًا .

وتوقَّف عند الباب ، ليغمز بعينه ، مستطردًا :

ـ لا أريد منك أن تقف فى ركن الفصل غدًا .

ومع ضحكة مرحة أخرى ، أغلق الباب خلفه ، وتركنى دون أن يبلغنى حتى باسمه ..

ولثوان ، حاولت استيعاب ما يحدث بهذه السرعة ..

إننى هنا منذ أقل من الساعة ، وهأنذا ألتقى بعدد من النماذج المختلفة ..

الهادئ ..

القوى الحازم ..

وجه القنفذ الرصين ..

وعريض المنكبين المرح ..

تُرى بمن سألتقى فى المرة القادمة ؟!

بل وما الذى ستحمله لى الخطوة التالية ؟!

وفى حذر ، يحمل شيئًا من التوتر ، التقطت الملف ، الذى وضعه المرح أمامى ، وفتحته ، ورأسى يحمل ألف سؤال ..

على الأقل ..

* * *

متى ينام هؤلاء القوم ؟!

هذا هو السؤال ، الذى ملأ ذهنى ، طوال الفترة التالية ، لالتحاقى بجهاز المخابرات !!

فمع دقات السابعة صباحًا ، فى اليوم التالى مباشرة ،

ولعدة أيام تالية ، كنت أتواجد داخل مبنى آخر ، فى أطراف المدينة ، أطلقوا عليه اسم (مدرسة المخابرات) ..

وفى هذه المدرسة عليك أن تفتح عينيك ، وأذنيك ، وعقلك أيضًا عن آخره ، حتى تستوعب كل ما يلقنونك إياه لعدة ساعات ، تفصل بينها دقائق قليلة للراحة ، وتناول الطعام ، والتقاط الأنفاس .

كنا نتعلَّم كل ما يتعلَّق بالنفس البشرية وقدراتها ..

كل شىء بلا استثناء ..

تعلمنا كيف نتعامل مع الأنماط المختلفة من البشر ، وكيف نرصدها ، ونصنفها ، ونجد الوسيلة المناسبة للسيطرة على كل منها ..

والسيطرة هنا لاتعنى الهيمنة ، أو الاستعباد ، وإنما يعنى البراعة فى سبر أغوار الشخصية التى أمامك ، والتسلل إليها بنعومة وحزم ، بحيث تصبح قريبة منك ، تمنحك ثقتها ، واحترامها ، وتجد راحتها فى ترك زمام قيادتها لك ..

وتعلمنا أن رجل المخابرات الناجح ، والجاسوس البارع ، هو من يجيد فن السيطرة هذا عن جدارة ..

وتعلمنا الكثير عن وسائل الاتصال ..

وعن تقنيات التجسُّس ..

وسياسات الدول ..

واستخدامات المواد الطبيعية ، المتاحة لكل مخلوق ، لإنتاج أسلحة قوية ، غير متاحة إلا للمقاتلين ..

تعلمنا أمورًا لايمكن أن تخطر لك على بال ..

ولكن أهم ماتعلمناه ، هو ألا نتوقَّف لحظة عن ملاحظة ورصد كل مايحيط بنا ، دون أن نغفل لحظة واحدة ..

ووسيلتهم فى تدريبنا على هذا كانت بسيطة ومدهشة بحق ..

ففى كل يوم ، كان علينا أن نتوقَّع سؤالاً ، قبل بدء المحاضرات والدروس ، وفى كل مرة كان السؤال يختلف ..

ما اسم الجراج المواجه لمبنى المدرسة ؟!

ما نوع التلفاز الموجود فى حجرة الطعام ؟!

هل كان العلم مرفوعًا أم منخفضًا هذا الصباح ؟!

على أى زمن ، كانت ساعة المبنى متوقفة اليوم ؟!

أسئلة من هذا القبيل ؛ لاختبار قوة ملاحظتك ، ويقظة حواسك ، فى كل يوم ، وكل ساعة ، وأحيانًا فى كل لحظة ..

ومع الوقت ، تتكوّن لديك حاسة مدهشة ، لملاحظة كل مايحيط بك من أشياء ، وأشخاص ، وحتى من جدران وأرضيات ..

والمدهش أن هذه الحاسة تنزرع فى أعماقك ، ثم لاتفارقها بعدها قط .. وهذا مايصنع منك رجل مخابرات ..

وأعترف أننى ، فى البداية ، كنت أحمل لمحة من السخط ، وشىء من الاستهتار ، تجاه فكرة الالتحاق بمدرسة المخابرات هذه ؛ باعتبار أننى ضابط قوات خاصة سابق ، لدىّ من المهارات مايفوق مالدى أى شخص عادى ..

ثم اكتشفت أن كل هذا لايكفى ، فى عالمى الجديد ..

إنه عالم بلاحدود ..

عالم يحتاج إلى كل معارف ومهارات الدنيا ..

عالم الغموض ، والإثارة ، والأسرار ..

وعلى الرغم من كل مهاراتى وخبراتى السابقة ، شعرت بأننى مجرّد تلميذ صغير ، فى مدرسة جديدة ، أشبه بمحيط هائل ، لم أشعر بوجوده من قبل قط ..

ولأوّل مرة فى حياتى ، اكتشفت أن كل ماشاهدته من أفلام ، وكل ماقرأته من كتب وروايات ، عن عالم الجاسوسية والمخابرات ، لم يكن حتى يقترب من الحقيقة فى هذا المضمار ..

ولست أبالغ ، لو قلت إن فترة مدرسة المخابرات ، كانت من أهم محطات حياتى على الإطلاق ..

كنا ندرس ، ونعمل ، ونختبر ، ونجرّب ، طوال الوقت تقريبًا ..

كنا لاننام ..

ولا نملّ أبدًا ..

وفى نهاية مرحلة التدريب ، أدركت أننى لم أعد كما كنت عليه من قبل ..

لقد أصبحت رجلاً جديدًا ..

رجل مخابرات ..

بحق ..

وكان هذا يعنى أننى قد صرت مؤهَّلاً لاقتحام عالمى الجديد ، بثقة لم أشعر بمثلها فى حياتى قط ..

عالمى ، الذى أدركت ، ولأوّل مرة أيضًا ، أنه عالم بلا قيود أو حدود ..

على الإطلاق .

* * *

تابع فى الكتب القادمة



العـــرَّاف ..

(من قصص الصراع العربى الإسرائيلى)

فرحة عارمة غمرت (إسرائيل) ، والإسرائيليين عقب انتصارهم فى حرب يونيو ١٩٦٧ م ..

وسائل إعلامهم صنعت من تلك الحرب القصيرة معجزة جديدة من معجزات العصر الحديث ، تستحق أن تكتب فى التوراة (على حد قولهم) ، واعتبرتها شهادة تقدير وإثبات لقوة الجيش الإسرائيلى ، الـذى يصف نفسه بالأسطورة التى لاتقهر ، ولجهاز المخابرات (الموساد) ، الذى أعلن أنه المسئول الأوَّل عما سماه بالانتصار الساحق على الجيوش العربية مجتمعة ، بفضل خداعه لهم ، وحصوله على كل المعلومات الممكنة منهم .

وفى غطرسة لامثيل لها ، خرج (موشى ديـان) ، وزير الدفـاع الإسرائيلى ، ليقـول فى مؤتمر صحفى علنى : إن الانتصـار على المصريين لم يكن بالأمر

العسير ، لأن العرب لايقرءون ، ولا يتعلمـون مـن أخطاء الماضى والتاريخ ..

أما جنرالات الجيش الإسرائيلى ، فكـانوا أشبه بذكور الطاووس ، من فـرط زهوهـم وغرورهـم ، وشعورهم الفائق بالظفر والانتصار ..

ومع زهو الانتصار ، وإشادة الصحف الإسرائيلية بالجنرالات ، والاحتفـالات التى أُقيمت فى كل مكان ، نسى الجميع حقيقة تلك الحرب القصيرة المحدودة ، وصدقـوا كل مايُقال عنها ، وعن كونها أعظم انتصارات التاريخ ..

ولأن للشـهرة بريقًا يخبو إلى جواره كل بريق ، ذاب الجنرالات وسط الاحتفالات والتكريم والتصفيق والهتاف ..

وحدث لديهم مايُطلق عليه اسم (استرخاء مابعد النصر) ..

وفى أحـاديثهم الشخصية ، كـان جنرالات الجيش الإسرائيلى يسترجعون ماحدث ، ويؤكدون لبعضهم أن حرب يونيو قد حطمت ليس الجيوش العربية وحدهـا ، ولكن الإرادة العربيـة أيضًا ، ولم يعـد مـن الممكن ،

مهما طال الزمن ، أن تأتى صحوة جديدة ، ينهضون فيها من هزيمتهم هذه ..

وكان من المؤكَّد ـ من وجهة نظرهم ـ أن انتصارهم صار أبديًّا ..

دون أدنى ذرة من الشك ..

ولكن المرأة أكثر تأثرًا بالشهرة والبريق ، فقد أصيبت زوجات الجنرالات بهوس لامثيل له إلا بين نجمات السينما ، وعارضات الأزياء الشهيرات ، ورحن يتنافسن فى استخدام أدوات الزينة ، وارتداء أحدث الأزياء ، الواردة من (باريس) خصيصًا ، ويتدربن على الابتسام أمام المرآة ، حتى تنشر الصحف صورهن ، فى أبهى صورة ممكنة ..

وكتداع طبيعى ، رحن يتهافتن على كل جديد وغريب ، فى محاولة لإثبات علو شأنهن ، وانتمائهن لطبقة تفوق كل الطبقات ، فى المجتمع الإسرائيلى الجديد ..

وفى تلك الفترة ، فى أواخر الستينيات ، كانت (إسرائيل) تمر بمرحلة تغيير كبيرة بالفعل ..

انتصارها ، وما أعقبه من انبهار إعلامى ، جعل أعداد المهاجرين إليها تتضاعف ، وانهمارهم وتهافتهم عليها يتزايد ، من كل بقاع الأرض ..

وكان على الإسرائيليين أن يعملوا بمنتهى الدقة ، لفحص ودراسة أوراق كل مهاجر جديد ، من بين المئات ، الذى يفدون عليها يوميًّا ، للتيقن من جنسيتهم وديانتهم ، ومراجعة كل نقطة يتبادر إليها الشك بشأنهم ..

ومن بين هؤلاء المهاجرين الجدد ، كان (يورى كرينهال) ..

شاب نحيل .. من أصل سوفيتى ، يوحى مظهره بالفقر ورقة الحال ، وإن عكست عيناه الزرقاوان التماعة عجيبة ، تجعلك تقسم ـ دون أن تتبادل معه حرفًا واحدًا ـ إن عبقريته ربما تفوق عبقرية (ألبرت آينشتين) نفسه ..

وكما يحدث فى المعتاد ، ودون أن يُبالى أحد بهذا الذكاء الواضح ، تم نقل (يورى) إلى أقرب مزرعة

أو (كيوبتز)، ليعمل بالزراعة والأعمال الشاقة، حتى يتم العثور على عمل مناسب له ..

ولأن ملفه لم يكن يحوى أية أمور مثيرة للاهتمام، فقد نسيه مكتب الهجرة، فور إرساله إلى تلك المزرعة ..

وهناك - ودون أدنى شكوى - راح الشاب يعمل طوال الوقت، ويوزع ابتسامته الشاحبة المرهقة على الجميع، ثم يجد فى آخر النهار الوقت الكافى، ليعاون عجوزًا على حمل الماء، أو الاستماع إلى شيخ يندب حظه، الذى جعله يصدق الدعاية الإسرائيلية، ويترك وطنه فى (بولندا)، ليلقى بنفسه وسط هذا العذاب الشاق ..

وطوال ثلاثة أشهر كاملة، قص (يورى) قصته أكثر من ألف مرة، على الرغم من أنها قصة بسيطة للغاية ..

فهو مجرد يهودى سوفيتى، اعتقل الحزب الشيوعى والده، بسبب خلاف فى الرأى، قبل أن يتجاوز هو الحادية عشرة من عمره، ثم قضت أمه عمرها كله لتربيته وتنشئته، وهى تحلم معه بعودة والده، الذى لم يعد قط حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

وكان الجميع يتعاطفون مع (يورى)، لطيبته وتهذيبه، ووجهه الشاحب النحيل ..

ثم فجأة، بدا اهتمامهم به يتخذ منحنى آخر ..

فذات ليلة صافية، امتلأت فيها السماء بالنجوم، وتألق وسطها القمر، الذى يغمر المنطقة كلها بضوئه الفضى، جلس (يورى) يتحدث مع جارته الفاتنة (راشيل) وأمها العجوز، و ...

وفجأة، توقف (يورى) عن الحديث، وشرد ببصره بضع لحظات، قبل أن يقول، وكأنه يحدث نفسه، أو يتحدث مع شبح خفى:

- (يارون بلونسكى) أخطأ كثيرًا، عندما رفض الاعتراف بما فعل ..

بُهتت (راشيل) وأمها، وحدقتا فيه بذهول تام، إذ إن ذلك الشخص، الذى يتحدث عنه، كان صديقًا قديمًا للشابة (راشيل) فى (بغداد)، تورطت معه فى علاقة غير شرعية، أسفرت عن حمل سفاح، استنكره (يارون)، ورفض الاعتراف به تمامًا، بل

وفر من (بغداد) كلها إلى جهة مجهولـة ، قبل عام واحد من هجرة أسرة (راشيل) إلى (إسْرائيل) ..

ولم يكن من المحتمل .. بل كان من المستحيل تمامًـا ، أن يعرف (يورى) حرفًا واحدًا فى هذه القصة ، التى أخفتها الأسرة تمامًا ، ولم تتحدث بشأنها مع أى كـائن كان ، فى محاولة لنسيانها ، ونسيان مـا جمعتـه من جهد ومال ، لإجهاض (راشيل) ، وإنقاذها من الفضيحة ..

وبشفتين مرتجفتين ، سألته (راشيل) :

ـ ما .. ماذا تقول يا (يورى) ؟!

لم يبد حتى أن الشاب قد سمعها ، وهو يردد بنفس الشرود العجيب :

ـ لقد شعر بالندم ، وسيدفع الثمن .. سيدفع الثمن ..

راح يكرر العبارة الأخيرة ، وقد شملته رعدة غريبة ، وتصبب العرق على وجهه الشـاحب النحيل ، ثم لـم يلبث أن سقط فيما يُشبه الغيبوبة ..

وعندما استعاد الشاب وعيه ، أنكر واستنكر تمامًـا ما قاله ، وأكد أنه لا يذكر حرفًا واحدًا منه ..

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ..

لولا ما حدث ، مع بداية الأسبوع التالى ..

لقد تلقت (راشيل) فجأة شيكًا بمبلغ ضخم ، يمكن صرفه من أى بنـك فـى (إسرائيل) ، ويحمل توقيـع (بارون بلونسكى) ، مع كلمة واحدة .

اقبلى اعتذارى .

ومع فرحة (راشيل) الغامرة ، انتشرت القصة فى المكان كله ، وتحدثت الأم فى انبهار عما قاله (يـورى) ، مع تركيزها على نبوءته ، دون أن توضح سبب وصول هذه الثروة إلى ابنتها .

وقبل أن تهدأ العاصفة ، ألقى (يورى) نبوءة جديدة ..

كان الجميع يرقصون ، فى حفل بسيط ، مع نهايـة الأسبوع ، عندما توقف فجأة ، وشرد بصره على ذلك النحو العجيب ، ثم ارتجف جسده كله ، وهو يقول :

ـ ياللخسارة : لماذا ينكسر محراث جميل كهذا ؟! لماذا ؟!

بدت العبارة عجيبة للجميع ، خاصة أن كل المحاريث

فى المزرعة تم تجديدها وإصلاح كل ما يمكن إصلاحه فيها ، ومنحتهم الشركة ضمانًا لمدة عام كامل بعدها .

ولكن (يورى) لم يعلق على هذا ، وإنما أنكر ما قاله ، وأكد أنه لا يذكر حرفًا واحدًا منه ، وإن لم يفقد الوعى هذه المرة .

ولا حتى لحظة واحدة .

وقبل ظهر اليوم التالى ، تحققت النبوءة :

انكسر المحراث بغتة ، دون أن يدرى أحد سببًا لهذا ..

وهكذا تحول (يورى) فجأة ، من عامل مزرعة بسيط ، إلى أسطورة ، يتحدث عنها المهاجرون الجدد ، فى المنطقة كلها .

وتوافد البعض ، من مناطق شتى ليشاهدوا ذلك العرّاف المدهش ، الذى ظل ينكر موهبته ، ويصر على أنه لا يدرى عنها شيئًا ، إلا أن إصراره هذا لم يزد الناس سوى انبهار وتهافت ، خاصة أنه كان يتوقف بغتة ، ويدير عينيه إلى أحد الحاضرين ، ثم يلقى نبوءة هنا ، وأخرى هنا ، أو يتحدث عن ماضٍ خفى ، أو حادثة لا يعلم عنها الآخرون .

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن تتجاوز شهرة الشاب حدود معسكرات العمل البسيطة ، وأن تقفز إلى أرض أكثر صلابة .

إلى (تل أبيب) نفسها ..

وذات يوم ، وجد (يورى) من يطلب منه السفر فورًا إلى (تل أبيب) ، ليلتقى ببعض الأشخاص المهمين هناك ..

وبدا الشاب هلعًا مذعورًا ، وهو يستقل السيارة الكبيرة الفاخرة ، التى أتت لإحضاره ، ويرتدى الحلة الأنيقة ، التى أحضرها معه سائق السيارة ، وراح يلقى عشرات الأسئلة ، التى تشف عن خوفه وارتياعه ، وحيرته حول السبب فى استدعائه ..

وانطلقت به السيارة خارج (الكيوبتز) ، الذى قدر له ألا يراه مرة أخرى قط .

وفى (تل أبيب) ، فوجئ الشاب بأن الأشخاص المهمين ، الذين يطلبون رؤيته ، عبارة عن فريق من النساء ..



زوجات القادة والجنرالات وكبار المسئولين فى (إسرائيل) ، كن يسعين للالتقاء به ، ورءوسهن محشوة بعشرات الأسئلة ، حول مصير أزواجهن ، ومستقبلهم ، واحتمالات الترقى والثروة .

وفى خوف واضح ، أكد الشاب أنه لايمتلك أية موهبة ، وحاول أن يقنعهن بإعادته إلى مكانه ، إلا أن ماسمعنه من مواهبه الخارقة ، كان يؤكد استحالة قبولهن للفكرة ، وإصرارهن على بقائه ، حتى ولو استغرق شهرًا كاملا ، قبل أن يتفوه بشىء ما أو نبوءة واحدة .

وقبل أن ينتصف الليل ، انتابت (يورى) تلك الحالة العجيبة ، من الشجون والتوتر والارتجاف ، واستدار إلى زوجة سكرتير وزير الصناعة ، وراح يروى لها خبايا ماضيها ، ثم أخبرها أن زوجها يواجه خطرًا كبيرًا .

وقريبًا ..

ومع هلع المرأة وذعرها حاولت أن تعرف المزيد من التفاصيل ، إلا أنه عاد ينكر ويستنكر كل ماقاله ، ويؤكد فى حيرة أنه لايذكر حرفًا واحدًا منه .

أى حرف ..

ثم إنه لم يطرح أية نبوءة أخرى تلك الليلة ، وترك زوجة سكرتير وزير الصناعة تعود إلى بيتها أشد شحوبًا منه ، وهى تتساءل عما يعنيه حتى إن النوم لم يعرف طريقه إلى عينيها قط ..

وفى الصباح التالى مباشرة ، تحققت النبوءة .

فجأة انكشفت انحرافات سكرتير الصناعة ، ووصلت

إلى النائب العام الإسرائيلى كومة من الأدلة ، حول وقائع فساد ورشوة واستغلال نفوذ .

وكانت فضيحة كبرى فى (إسرائيل) ..

وقنبلة تفجرت حول (يورى كرينهال) ، الذى ذاع صيته ، وعلا شأنه وتحسنت سمعته ، وكاد يحمل لقب (العرّاف الرسمى للكبار) .

كل الكبار ...

وزوجاتهم على وجه الخصوص ..

وعلى الرغم من الأضواء المبهرة ، التى تسلطت عليه ، ظل (يورى) كما هو ...

بسيطًا ، شاحبًا ...

وخائفًا ...

ولم يعترف مرة واحدة ، بأنه يمتلك أية قدرات روحانية خاصة .

لم يعترف بذلك أبدًا ..

ولكن هذا لم يمنعه من إلقاء نبوءة تلو الأخرى ..

وكلها تتحقق ..

وعلى نحو مدهش ..

ولم يعد الأمر يقتصر على الزوجات وحدهن ..

الجنرالات أيضًا انضموا إلى القائمة ، وأتوا بأزيائهم العسكرية النظيفة ، وأوسمتهم الكبيرة الملونة ، وكروشهم الضخمة ، التى نمت كنتاج للانتصار والاستقرار ، والشعور الدائم بالظفر والتفوق .

فى البداية كانوا يكتفون بحضور الحفلات ، ومراقبة الشاب فى حذر وهو ينكمش فى أحد الأركان ، أو يتحدث إلى واحدة من الزوجات ، فى أدب جم وخفوت شديد ..

ثم وهو يشحب ويرتجف ويلقى نبوءة جديدة .

كالمعتاد ، تتحقق نبوءته بمنتهى الدقة ..

رويدًا رويدًا ، راحوا يجتمعون به فرادى ..

كل منهم كان يدعوه إليه ، ويسأله فى لفهة عن مصيره ومستقبله ، ودوره فى الوزارة القادمة أو الحكومة المنتظرة ..

والشاب يواصل إصراره واستنكاره ، وتأكيده أنه لايمتلك أية معلومات .

والجنرالات يزدادون لهفة ، وتهافتًا ، وإصرارًا على أن يخبرهم ما ينتظرهم ، فى المستقبل القريب والبعيد .

ولجميعهم تقريبًا ، قال العرّاف الشاب ، بصوته الشاحب الباهت الضعيف :

ـ فى أوائل العام القادم ، ستصبح ذا شأن كبير للغاية ..

ومن المؤكَّد أن كلاً منهم قد شعر بارتياح عارم لهذه النبوءة ..

ومن المؤكَّد أكثر أنه أخفاها عن كل من حوله ..

وخصوصًا فى تلك الفترة ، من نهاية أغسطس ، عام ١٩٧٣ م ..

ثم فجأة ، وبلا مقدمات ، ومع نهاية سبتمبر ، من العام نفسه ، اختفى (يورى كرينهال) تمامًا ، من حفلات المجتمع الإسرائيلى ..

من كل الحفلات ..

بل ومن (إسرائيل) كلها ..

وعبثًا ، بذل الجنرالات وزوجاتهم جهدًا مضنيًا ، للبحث عنه والعثور عليه ..

ثم توقفوا عن كل هذا دفعة واحدة .

فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م ..

توقفوا مع الضربة الجوية المدهشة ، التى حطمت غرورهم وغطرستهم ، مع اللحظة الأولى للحرب .

الحرب التى شنتها (مصر) والعرب، بعد أن تصور جنرالات (إسرائيل) أنها أمر غير محتمل الحدوث على الإطلاق.

ومع عبور قناة (السويس) وارتفاع العلم المصرى على الضفة الشرقية، انهارت أسطورة الجيش الإسرائيلى تمامًا.

وانهارت دفاعاته.

وقواته..

وقبل كل هذا.. كرامته.

ومع القتال العنيف.. والهزائم التى تتوالى بلا انقطاع، راح جنرالات (إسرائيل) يتساءلون فى ذعر عن سر كل هذا..

كيف نهض المصريون من كبوتهم بهذه السرعة؟!

كيف حققوا ما تصور الجميع أنه مستحيل؟!

ثم كيف جمع رجال المخابرات المصرية كل هذه

المعلومات، التى تجعلهم يُقاتلون، كما لو أنهم يحفظون دفاعات (إسرائيل) عن ظهر قلب؟!

كيف؟

وفى الوقت نفسه، الذى يلقون فيه تساؤلاتهم، كان أحد ضباط المخابرات العامة المصرية يبتسم، وهو يربت على كتف شاب مصرى نحيل شاحب، تتألق عيناه بذكاء فطرى عجيب، وهو يقول:

ـ أجدت دورك تمامًا يا (حسين).. انتماؤك إلى أب مصرى وأم سوفيتية جعلك مقنعًا للغاية كمهاجر روسى فقير، وقدراتك على التمثيل أقنعتهم كلهم بأنك عرّاف حقيقى.

ابتسم الشاب قائلاً:

ـ الفكرة نفسها كانت عبقرية، ثم إنكم وضعتم خلفى فريقًا كاملاً، يجمع المعلومات، ويبلغنى بالتطورات، وينفذ العمليات، حتى كدت أُصدق قدرتى على التنبؤ.



ثم اتسعت ابتسامته وهو يُضيف :

ـ الواقع أنكم أنتم من يستحق التهنئة .

قالها ، وشفتاه تحملان ابتسامة ظافرة كبيرة .

وعيناه تتألقان بذلك البريق المدهش .

بريق عبقرية ..

ووطنية ..

بلا حدود ..

★ ★ ★

٢ ـ النادى النووى ..

من المؤكَّد أن حصول الاتحاد السوفيتى على سر القنبلة النووية ، قد قلب كل الموازين فى رأس وكيان الولايات المتحدة الأمريكية ، التى فقدت بهذه الضربة قوتها المنفردة ، التى كان يمكن أن تجعل منها قطبًا أوحدًا ، كما هو الحال الآن ..

ليس هذا فحسب ، وإنما بدأ الأمريكيون يرتجفون من الوحش الذى صنعوه ، والذى أصبح ملكًا لغيرهم ، ويهدِّد أمنهم وسلامتهم ليل نهار ، ويطاردهم فى غدوهم ، ورواحهم ، وصحوهم ، وحتى فى أحلامهم ..

وانتشرت المخابئ والملاجئ النووية ، فى طول (أمريكا) وعرضها ، وراحت أجهزة التلفاز تبث برامج تعليمية خاصة ، تشرح للناس كيفية التصرُّف والتعامل ، حال حدوث حرب نووية ..

بل ورأينا عشرات الأفلام السينمائية والتليفزيونية ، التى تفترض وقوع اعتداء نووى ، ولو من باب الخطأ ، أو حتى كامتداد للعبة غير مدروسة ، كما حدث فى فيلم (War Games) أو (ألعاب الحرب) ، بل وتمادى الأمر إلى افتراض وقوع الهجوم النووى بالفعل ، ونقل صورة ما سيعقب هذا من خراب ودمار ، كما فعل الفيلم التليفزيونى الأمريكى الشهير (The day after) ، أو (اليوم التالى) ..

ووسط كل هذا الرعب والفزع ، كانت دول العالم ، وبالذات الأوروبية ، تسعى بدورها للانضمام إلى النادى النووى ، والتوصُّل إلى سر القنبلة الذرية والنووية ..

وفى الثالث عشر من فبراير ، عام ١٩٦٠م ، نجحت (فرنسا) فى تحقيق الحلم ، وأجرت أوَّل تجاربها النووية ، وتفجيراتها الذرية ، لتصبح بهذا أوَّل دولة أوروبية ، تحصل على السلاح التدميرى الشامل ..

وبدأ القلق يسرى فى العالم أجمع ..

ولكنه قلق عجيب للغاية ..

قلق يحمل لمحة من الارتياح ؛ باعتبار أن انتشار السلاح النووى ، هو الضمان الأمثل لعدم استخدامه ، أو ما يطلق عليه اسم التوازن النووى المانع ..

وفى (أمريكا) ، راح المسئولون يدرسون الأمر جيِّدًا ، ويتابعون عملية الانتشار النووى هذه ، بمزيج من الحذر والقلق ، وخاصة عندما بدأت (الصين) ، الكتلة الشيوعية الضخمة ، فى دراسة القنبلة الذرية والطاقة النووية ، على نحو يوحى بأنها فى سبيلها إلى دخول النادى النووى ذاته ..

وكإجراءٍ وقائى ، اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية سياسة جديدة ، تجاه القوة النووية التى اخترعتها ، فقـرَّرت ، ولأوَّل مـرة ، أن تمنـح بعض حلفائهـا - بإرادتها - أسرار القنبلة النووية ..

بل ومعاونتهم على إنتاجها ..

وفى الأوَّل من مارس ، عام ١٩٦٢م ، وبمساعدة

الأمريكيين ، أجرت إنجلترا أول تفجيراتها النووية التجريبية ، فى صحراء (نيفادا) الأمريكية ..

ثم تبعتها الصين ، فى السادس عشر من أكتوبر ، عام ١٩٦٤م ، لتعلن أن الكتلة الشيوعية الهائلة ، التى تضمّ ثلث سكان العالم ، قد انضمّت ، وبقوة ، إلى النادى النووى العالمى ..

وهنا ، تبدَّلت السياسة الأمريكية مرة أخرى ، وراحت تبدى غضبها وحنقها ، من انتشار السلاح النووى ، ولكن وجود الاتحاد السوفيتى و(الصين) حد من محاولاته منع دولة أخرى ، من إنتاج الأسلحة النووية ، لذا لم تجد (أمريكا) أمامها سوى عقد معاهدات مع الدول المنتجة للسلاح النووى ، لمنعها من نقل تلك التكنولوجيا النووية ، إلى أية دول جديدة ..

ولعدة سنوات تالية ، بدا وكأن تلك المعاهدات قد أتت ثمارها ، وخاصة مع حربى ١٩٦٧م ، و١٩٧٣م ، عندما امتنع الاتحاد السوفيتى عن نقل التكنولوجيا النووية لحليفته (مصر) ، فى صراعها مع (إسرائيل) ، مقابل عدم نقل (أمريكا) التكنولوجيا نفسها إلى العدو ..

ولكن فى عام ١٩٧٤م ، وبالتحديد فى الثامن عشر من مايو ، أجرت (الهند) أول تفجير نووى اختبارى ، فى صحراء (راجستانى) ، على بعد مائة وخمسين كيلومترًا فحسب ، من الحدود الباكستانية ..

وكان من الواضح أن (الهند) تسعى لهدفين رئيسيين ، من تفجيرها النووى هذا ..

أولهما ، إعلان انضمامها إلى النادى النووى غير الرسمى ، وثانيهما أن يتم رصد ذلك التفجير النووى من قبل عدوها التقليدى اللدود (باكستان) ؛ لتدرك هذه الأخيرة أن الصراع قد انحسم لصالح (الهند) ، وأنه لم يعد لها قبل بالمواجهة ، المباشرة ..

ولكن مافعلته (الهند) استفزّ (باكستان) بشدة ، حتى إن رئيس وزرائها (ذو الفقار على بوتو) - آنذاك - أعلن أن (باكستان) ستجوع ، حتى تنتج القنبلة النووية ..

وكان هذا يعنى أن (باكستان) ترفض - وبشدة -

أن تهبط إلى مرتبة الضعيف ، فى حربها الأزلية مع (الهند) ، حتى ولو جندت كل مواردها للحاق بالنادى النووى ، على حساب طعامها ، وخطط تنميتها ، وحتى اقتصادها ..

وبينما تكافح (باكستان) لإنتاج قنبلتها النووية ، رصد قمر صناعى أمريكى تفجيرًا نوويًا تجريبيًا ، فى المحيط الهندى ، عام ١٩٧٩م ..

وبسرعة نشطت كل أجهزة المخابرات الأمريكية ، لتحديد الجهة التى تختفى خلف ذلك التفجير النووى ..

وجاءت النتائج لتؤكد أن تعاونًا مشتركًا ، بين (إسرائيل) و(جنوب إفريقيا) ، كان وراء ذلك التفجير التجريبى ..

وكان هذا يعنى أن (إسرائيل) و(جنوب إفريقيا) قد انضمتا فعليًا إلى النادى النووى ..

وفى عام ١٩٨٦م ، أعلنت (باكستان) أنها قد نجحت

فيما أطلقت عليه اسم (التجربة الباردة) ، لتفجير نووى محدود ..

ولأن المصطلح كان جديدًا ، وغير مستخدم تقريبًا ، فقد تجاهل العالم هذا الإعلان ، وافترض المراقبون والمحللون السياسيون أنها مجرَّد مناورة سياسية ؛ لإقناع (الهند) بأن (باكستان) لم تعد لقمة سائغة ، فى عالم الصراع النووى ..

ثم انهار الاتحاد السوفيتى كدولة عظمى ، مع بدايات التسعينيات ، على الرغم من سياستى الإصلاح (بروسترويكا) ، والمصارحة (جلاسوفست) ، اللتين اتبعهما الرئيس (جورباتشوف) ..

وسقط قلب (أمريكا) بين قدميها ..

فمع الانهيار السريع والمفاجئ ، تنشأ عادة حالة من الفوضى والاضطراب والفساد ، تمتد حتمًا إلى كل قطاعات الدولة ..

وبالذات القطاع العسكرى ..

ولكن أخطر ما أفزع (أمريكا) ، أن يمتدّ هذا إلى المخزون الاستراتيجى للأسلحة السوفيتية ..

الأسلحة النووية ..

وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتى قد أكَّد ألف مرة ، أنه لن يفرِّط فى رأس نووى واحد ، من مخزون رءوسه النووية ، إلا أن عشرات الشائعات انتشرت ، فى كل أرجاء وأنحاء الأرض ، قائلة إن عددًا من الدول قد حصلت بالفعل على أسلحة ومعدات نووية ، ورءوس جاهزة للإطلاق ، من الاتحاد السوفيتى ..

وبأثمان بخسة أيضًا ..

أثمان لم تتجاوز الملايين العشرة ، فى بعض الحالات ، بالدولار طبعًا ..

وامتدَّت تلك الشائعات لتشمل (إيران) ، و(العراق) ، وحتى (مصر) نفسها ، فى قائمة الدول التى حصلت على رءوس نووية من الاتحاد السوفيتى السابق ..

ومرة أخرى ، نشطت أجهزة المخابرات الأمريكية ، والأوروبية ، والإسرائيلية أيضًا ، للتأكُد من صحة أو كذب تلك الشعائعات ..

ولكن الأمر لم ينحسم قط ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

ففى مثل هذه الأحوال ، يحيط الطرفان ، البائع والمشترى ، هذه الصفقة بكل احتياطات السرية والكتمان ..

لا أحد سيعترف بأنه قد باع رأسًا نوويًا ..

ولا أحد سيقر بأنه قد اشتراه ..

ويمتلكه ..

وهكذا ضاعت الحقيقة ، وعجزت كل أجهزة المخابرات عن كشفها ، إلى أن فوجئ الجميع بتفجير نووى تجريبى فى الثامن والعشرين من مايو ، عام ١٩٩٨ م ، فى تلال (شجاى) الباكستانية ، عند الحدود الجنوبية لدولة (أفغانستان) ..

وكان هذا يعنى أن (باكستان) قد برَّت بوعدها ، وحققت حلمها وهدفها ، وجاءت واحتملت ، حتى انضمَّت أخيرًا إلى النادى الرهيب ..

النادى النووى ..

وأصبح من الواضح أن العالم كله قد صار على حافة هاوية نووية مخيفة ، وخاصة مع انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالقوة ، فى عصر القطب الواحد ، وإصرارها على اتهام عدة دول بأنها تمتلك أسلحة نووية سرية ، أو أن لديها برامج نووية قادرة على صنع أسلحة نووية ، فى المستقبل القريب ، مثل (إيران) و(العراق) ، على الرغم من إعلان الأولى أن كل ما لديها من نوويات موجَّه للأغراض السلمية فقط ، وإصرار الثانية على أنها لاتمتلك أية أسلحة نووية على الإطلاق ..

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من إصرار (أمريكا) على منع أية دولة فى العالم ، من إنتاج أو استخدام القابل

النوويـة ، إلا أنهـا تتعـامى تمامًـا عـن (إسـرائيل) ، ومـا تنتجـه وتمتلكـه من أسلحة نوويـة ، ممـا يطرح سؤالاً بالغ الأهمية والخطورة ..

ما دورنا نحن العرب فى كل هذا ؟!

وما موقعنا من النادى النووى ؟!

وأين قنبلتنا النووية .. العربية ؟!

أين ؟!

* * *

(تابع الجزء الثالث ، فى الكتاب القادم .. بإذن الله)

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسة غير تقليدية ..

إنها أوَّل سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدِّم لك أسرار عالم الأسرار ..

أوَّل سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غموض أقوى عالم ..

عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلابد أن تشاركنا فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!

أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك ؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها ؟!

موسوعة الجاسوسية ؟!

سينما الجاسوسية ؟!

تاريخ الجاسوسية ؟!

مشاهير عالم الجاسوسية ؟!

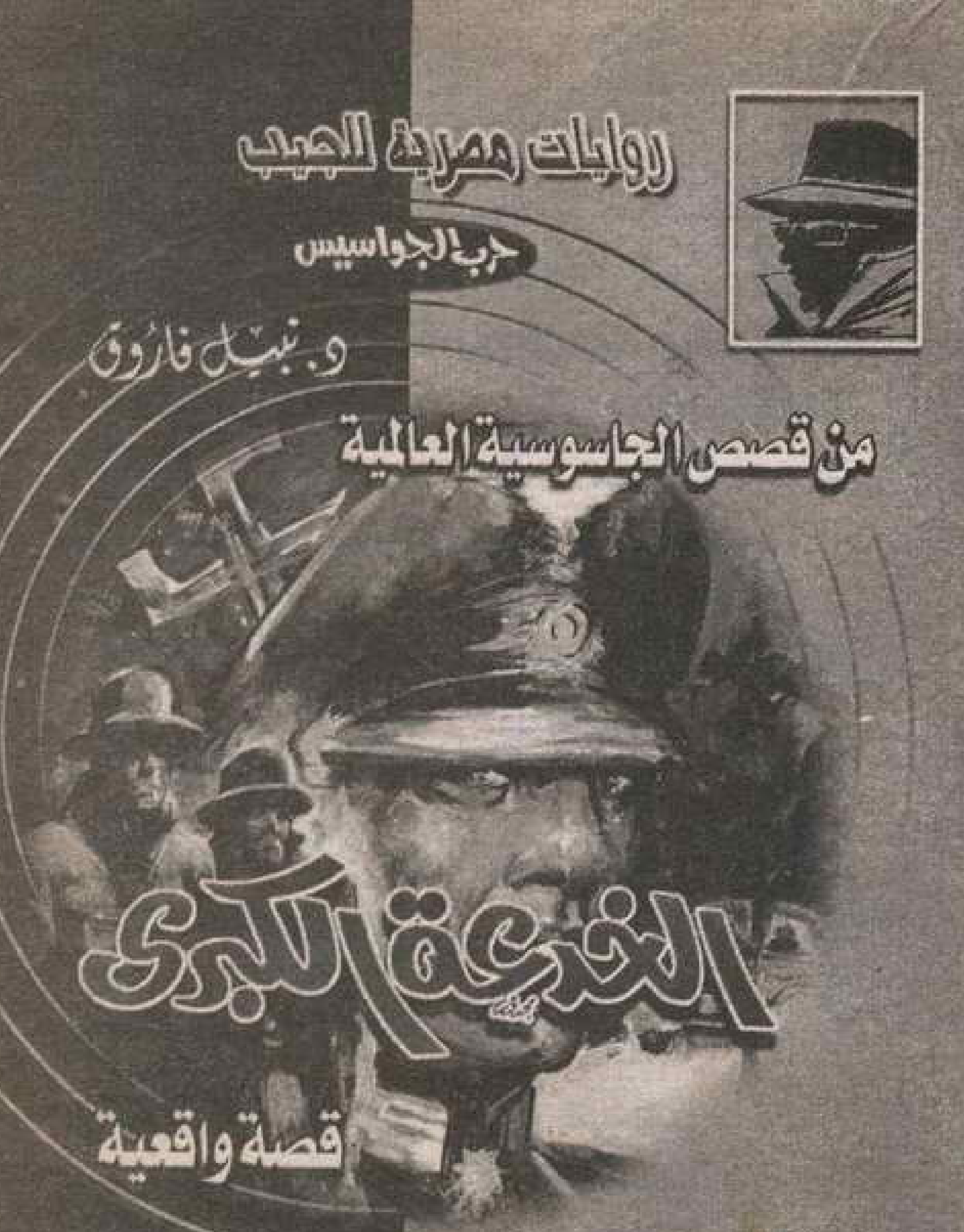
أم ماذا ؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و ....

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء الله (العلى القدير)

د. نبيل فاروق



١ـ المنشقون ..

ساد الهدوء على نحو يفوق المألوف ، فى تلك المنطقة الحدودية الهولندية ، فى بلدة (فنلو) ، التى يفصلها متران فحسب ، عن الحدود الألمانية ، فى تلك الليلة ، فى الثامن من نوفمبر عام ١٩٣٩م ، حتى إن حرس الحدود الهولنديين راحوا يتثاءبون ، من فرط الملل ، وانهمك بعضهم فى لعب الورق ، أو فى محاولات يائسة لالتقاط بث الإذاعة الألمانية ، التى لاتكف عن إذاعة خطب (أدولف هتلر) الحماسية ، طوال الوقت تقريبًا ..

كان نجم (هتلر) قد سطع ، على نحو غير مسبوق ، بالنسبة لأية زعامة أوروبية معروفة ، منذ دخل الناس أفواجًا فى حزبه النازى ، اعتبارًا من عام ١٩٢٩م ، بعد أن أرجع ، مع بوق دعايته الشهير (جوبلز) ، كل الكوارث التى ألمّت بالألمان ، وكل أزماتهم الاقتصادية ، إلى الرأسمالية اليهودية ، والشيوعيين ، ومعاهدة (فرساى) ، والحزب الديمقراطى

الاشتراكى ، ووعد الألمان بإقامة دولة قوية مرهوبة الجانب ، تنعم بالاستقرار والرخاء الاقتصادى ، لو أنهم سعوا إلى إنجاحه ، وتوليته زمام الحكم فى الانتخابات التالية ..

ولأن برنامجه كان يروق لبعض رجال الصناعة الألمان ، الذين يشكون من المنافسة غير الشريفة ، مع الرأسماليين اليهود ، فقد راحوا يساعدونه سرًا ، على نحو دفعه إلى إنشاء جهاز سرى ، للاعتداء على خصومه وإرهابهم ، أو التخلص منهم لو استلزم الأمر ..

وعلى الرغم من أن (هتلر) لم يفز فى انتخابات الرياسة ، التى أجريت عام ١٩٣٢م ، مع انتخاب ونجاح (هندنبورج) ، إلا أن حزبه قد فاز بأكبر عدد من المقاعد فى (الرايشستاج) ، أو المجلس البرلمانى الألمانى ، مما أجبر (هندنبرج) على تعيينه رئيسًا للوزراء ، فى يناير ١٩٣٣م ..

ومع بدء عهده كرئيس للوزراء ، أبرز (هتلر) أنيابه ، وانطلق ينفذ سياسته الدموية بلا رحمة أو هوادة ،

فوضع جميع الهيئات والمرافق تحت إشرافه الشخصى ، واتهم الشيوعيين بحرق (الرايشستاج) ، وراح ينكل بهم وباليهود ، ويطردهم من الوظائف الحكومية والجامعات ، وأقام معسكرات الاعتقال ، التى زجّ فيها بكل خصومه ، على نحو لم تعرفه (أوروبا) القرن العشرين أبدًا ..

وفى انتخابات عام ١٩٣٤م ، نجح (هتلر) فى الإطاحة بالرئيس (هندنبرج) ، ليجمع فى يده سلطات رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء معًا ، ولتبدأ (ألمانيا) عهدًا نازيًا رهيبًا ..

عهد الرايخ الثالث ..

والأخير ..

ولأنه من الطبيعى أن يثير هذا اهتمام وقلق كل جيران (ألمانيا) القريبين ، وحتى البعيدين ، فقد راحت معظم دول (أوروبا) تتابع تطورات (هتلر) وحزبه النازى فى حذر وتحفظ ، وقد بدا واضحًا للجميع أنه ألقى معاهدة (فرساى) ، التى اضطرت (ألمانيا) لتوقيعها ، بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، خلف

ظهره ، وأنه يسعى حثيثًا ، بطرق خفية ومستترة ، إلى أن تستعيد (ألمانيا) قوتها ، وجيشها ، وهيبتها بين دول (أوروبا) ..

ونظرًا لأن سياسته قد اقتصرت ، لوقت طويل ، على سياساته الداخلية ، وخطط التنمية الألمانية ، فقد اكتفت الحكومات بمراقبته ومتابعته ، وواصلت تعاملاتها السياسية والدبلوماسية معه ، على الرغم من ثقة بعضها بأن طموحاته النازية تتجاوز حدود بلاده بكثير ، ولن تمضى أعوام قليلة ، حتى ينطلق ليغزو كل من حوله ..



وأيضًا بلا رحمة ..

ولو أن الدبلوماسية تحتم التعامى عما يحدث ؛ لأسباب وتعقيدات عديدة ، فأجهزة المخابرات لا يمكنها أن تصمت أو تتجاهل أبدًا ..

وبالذات جهاز المخابرات البريطانى ، المعروف باسم (آى - إم - ٦) ..

وتحت قيادة الأدميرال سير (هوج سنكلير) ، راح جهاز المخابرات البريطانى يدس جواسيسه ، فى (ألمانيا) و(أوروبا) ؛ لجمع كل المعلومات الممكنة عن نوايا (هتلر) وطموحاته ، واستعداداته لشن أية حروب قادمة ..

وجاءت المعلومات مخيفة ..

وإلى أقصى حد ..

فالزعيم النازى (أدولف هتلر) يعيد بناء آلته الحربية ، على نحو لم تعرفه أية دولة ، فى (أوروبا) كلها ..

دبابات .. طائرات .. مدافع ميدان .. أسلحة خفيفة .. ذخائر ...

كل شىء يتم إنتاجه بالمئات ، وبأسلوب لا يمكن أن تسعى إليه دولة ، لمجرد الحفاظ على أمن وسلامة حدودها ..

بل دولة تستعد لشن حرب ..

بل حروب ..

وهنا ، اجتمع (سنكلير) برجاله ، وعلى رأسهم نائبه (ستيوارت . ج . فنرز) ؛ لبحث ودراسة ذلك الموقف المعقد ، والخطير إلى أقصى حد ..

وفى ذلك الاجتماع ، استعرض رجال المخابرات البريطانية كل ما لديهم من معلومات ، وناقشوا كل التفاصيل والاحتمالات ، قبل أن يتراجع (سنكلير) فى مقعده ، ويقول فى حزم :

- باختصار أيها السادة ، نحن فى وضع بالغ التوتر

والخطورة ، ولو لم نتدخَّل لفعل شىء ما ، فى الوقت المناسب ، فسيشعل ذلك المجنون النار فى (أوروبا) كلها .. بل وربما فى العالم أجمع .

اعتدل نائبه (فنرز) وهو يقول فى اهتمام :

- السؤال الآن هو ما الذى يمكن أن نفعله ؟!

تبادل الكابتن (سى . باين بست) ، والميجور (هـ . ر . ستيفنز) نظرة صامتة ، قبل أن يتنحنح الأوَّل ، ويرفع يده طالبًا الكلمة ، ثم يقول فى خفوت :

- أعتقد أن لدينا ، (ستيفنز) وأنا ، حلاً لهذه المعضلة .

سأله (سنكلير) فى لهفة :

- وما هو ؟!

استدار (بست) ببصره إلى (ستيفنز) ، الذى تنحنح أيضًا فى توتر ، قبل أن يجيب ، فى حزم واقتضاب :

- المنشقون .

تراجع (فنرز) فى مقعده ببطء ، وهو يحدِّق فيهما ، فى حين انعقد حاجبا (سنكلير) فى شدة ، وهو يكرِّر فى تساؤل حذر :

- المنشقون ؟!

اندفع (بست) يشرح الأمر فى حماسة ، قائلاً :

- كلنا يعلم أن أسلوب ومبادئ الحزب النازى ، لا تلقى قبولاً لدى الجميع ، ولكن أسلوب (هتلر) الديكتاتورى الدموى ، يمنع الكل من إبداء اعتراضاتهم ، وخاصة فى صفوف الجيش ، لذا فقد كوَّن بعض ضباط الجيش الألمانى تنظيمًا سريًّا ، يدبر حاليًّا مؤامرة خفية ؛ للإطاحة بالزعيم (أدولف هتلر) وحزبه .

قال (سنكلير) ، فى حذر أكثر :

كلنا نعلم هذا ، ولكن ليس لدينا دليل واحد ، على صحة وجود هذه المؤامرة المزعومة ، حتى هذه اللحظة .

تبادل (بست) و(ستيفنز) نظرة صامتة أخرى ، قبل أن يفرد الأخير قامته على مقعده ، قائلاً بكل الحزم :

- نحن لدينا يا سيِّدى .

وكانت مفاجأة مدهشة ..

للجميع ..

★ ★ ★

« أأنت واثق من أنه سيأتى ؟! »

ألقى الكابتن (بست) سؤاله ، فى توتر ، لم يستطع إخفاءه ، وهو يجلس إلى جوار الميجور (ستيفنز) ، داخل سيارتهما الصغيرة ، التى تكمن خلف جذع شجرة ضخم بالقرب من تلك النقطة الحدودية الهولندية ، المتاخمة للحدود الألمانية ، فى ذلك اليوم ، الثامن من نوفمبر ١٩٣٩ م ، فالتفت إليه (ستيفنز) ، وتساءل فى شىء من الحزم ، لم ينجح أيضًا فى كتمان ذلك الانفعال ، الذى تموج به أعماقه .

ـ لو أنك فى مكانه ، هل كنت ستضيع فرصة كهذه ؟!

تساءل (بست) :

ـ فرصة لمن ؟! له أم لنا ؟!

صمت (ستيفنز) بضع لحظات ، قبل أن يقول بنفس الحزم :

ـ للطرفين .. إنه منشق ألمانى ، ويدرك ورفاقه أننا أحد أسلحتهم القوية ، لو أرادوا القضاء على ذلك المعتوه النازى .

مطَّ (بست) شفتيه ، وهو يقول فى حذر :

ـ ربما كان (هتلر) ديكتاتورًا دمويًا ، ولكنه ليس معتوهًا أبدًا .

انعقد حاجبا (ستيفنز) فى شدة ، وهو يقول فى شىء من الصرامة :

ـ فليكن .. هذه ليست قضيتنا الآن .

صمت كلاهما بعدها تمامًا ، وعيونهما تطلَّع إلى الطريق ، الذى ينتظرون قدوم ذلك المنشق الألمانى منه ،

وعقولهما تسبح بعيدًا ، فى تلك الظروف ، التى تعرفا فيها على ذلك المنشق الألمانى ..

فالوسيلة التى حدث بها الاتصال ، بينهما وبين ذلك المنشق الألمانى ، كانت فريدة وعجيبة بحق ..

وعلى نحو يفوق التصورُ ..

كل تصورُ .

★ ★ ★

٢ ـ وسقط الجاسوس ..

● سرت موجة عنيفة من التوتر ، فى كيان ذلك العميل البريطانى ، الذى لم تفصح الوثائق عن اسمه أبدًا ، وهو يعود إلى منزله ، فى قلب (برلين) ، فى الخامسة من مساء ذلك اليوم ، من بدايات يناير ١٩٣٩ م ..

كان ألمانى الملامح ، والجنسية ، والأصل أيضًا ، إلا أنه ، ومنذ صعود الحزب النازى إلى الحكم ، شعر بغصة مؤلمة فى حلقه ، واستبصر مصيرًا أسود ينتظر بلاده ، فى ظل ديكتاتورية (أدولف هتلر) ورجاله ، لذا فقد قرَّر أن يسعى بكل كيانه وقوته ، لمنع حدوث هذا بأى ثمن ..

ومن هذا المنطلق ، كان من الطبيعى أن تلتقطه عيون خبراء جهاز المخابرات البريطانى ، وأن تصل إلى (لندن) عدة تقارير بشأنه ، بين عشرات التقارير الخاصة بكل المعارضين لنظام الحكم النازى ..

وفى (لندن)، وبين يدى (سنكلير) ورجاله، بدأت عملية فرز وتصنيف ودراسة كل التقارير، الواردة من (برلين)، وباقى بلدان (ألمانيا)؛ للبحث عمن يمكن إقناعهم، وتجنيدهم للعمل لحساب المخابرات البريطانية، فى قلب النازية..

ولقد نال ذلك الألمانى اهتمام وتقدير الجميع، وتم انتخابه للقيام بتلك المهمة، التى لم يكن يعلم بأمرها، أو حتى يتصورً إمكانية حدوثها..

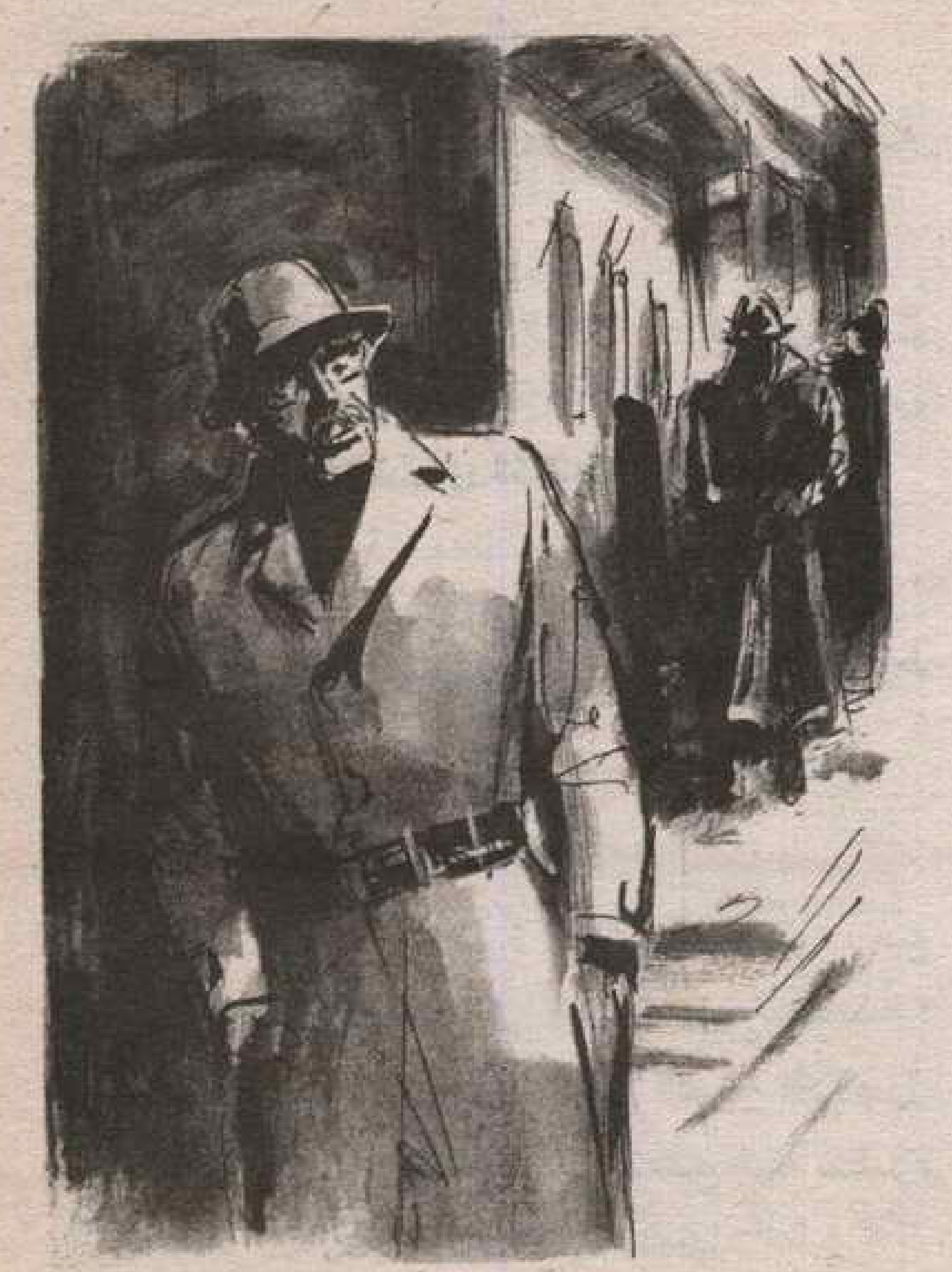
والمؤسف أن الوثائق، التى تم الكشف عنها، حتى لحظة كتابة هذه السطور، لم تتضمَّن اسم ذلك الألمانى، أو وسيلة تجنيده، باعتبارهما من الأسرار العليا، التى لن يتم الكشف عنها، قبل عام ٢٠١٥م، أى بعد مرور خمسة وسبعين عامًا، على نهاية الحرب العالمية الثانية..

ولكن ما يهمنا هنا، هو أنه قد تم تجنيده بالفعل، وأنه قد صار واحدًا من أفضل عملاء المخابرات البريطانية، فى قلب (برلين)..

ولأن الرجل كان مقتنعًا، بأن القضاء على (هتلر) ورجاله هو الوسيلة المثلى، لإيقاف ذلك المد النازى، الذى يقود بلاده إلى الهاوية، فقد راح يتعاون مع المخابرات البريطانية بكل طاقته وحماسته، وبدأ يجمع المعلومات، ويرسل التقارير والصور، على نحو لم ينجح فيه أى عميل آخر، فى ذلك الموقع..

وربما إلى هذا تعود أهمية وخطورة ذلك العميل، ويعود حرص المخابرات البريطانية على عدم ذكر اسمه، وتفاصيل عملية تجنيده، إذ لم يمض عام واحد، حتى صار أهم عملاء (لندن)، فى قلب (برلين)..

ولأن وظيفة الرجل كانت تمنحه نوعًا من الحصانة والثقة، فى المجتمع النازى، فقد كان يمارس لعبة الجاسوسية فى هدوء وثقة، وبنشاط جم، ويعود كل يوم إلى منزله، وجيوبه تحمل عشرات الصور والوثائق والمعلومات، و... ولكن دوام الحال من المحال..



راح الرجل يحث الخطى ، محاولاً بلوغ أى شارع جانبى ؛ ليتخلص من كل ما تحويه جيوبه ...

ففى ذلك اليوم ، فى بدايات يناير ١٩٣٩ م ، شعر ذلك العميل بأن الأمور لا تسير على ما يرام ..

هناك حتمًا من يراقبه ..

ومن يتبعه ..

وهذا لايمكن أن يعنى سوى أمر واحد فقط لا غير ..

لقد انكشف أمره بوسيلة ما ..

وبكل قلق الدنيا ، راح الرجل يحث الخطى ، محاولاً بلوغ أى شارع جانبى ؛ ليتخلص من كل ما تحويه جيوبه ، من أوراق وصور ، تكفى لإعدامه فى قلب أكبر ميادين (برلين) ، بلا أدنى شفقة أو رحمة ..

وفى كل لحظة تمضى ، كان يوقن أكثر وأكثر من أنه مراقب ومتبوع ..

رجلان .. بل ثلاثة رجال ، يسيرون خلفه طوال

الوقت ، دون أن يحاول أحدهم استيقافه ، ولو لحظة واحدة ..

وزاد العميل من سرعته ، واتجه نحو أول شارع جانبى ، وتبخرت مع مبادرته هذه أية ذرة للشك فى أعماقه ، مع زيادة الرجال الثلاثة لسرعتهم خلفه ..

إنهم يطاردونه إذن ..

وبسرعة ، دلف إلى ذلك الشارع الجانبى ، والتقط كل محتويات جيب معطفه ، و ...

« لن نسمح لك بأن تفعل هذا .. »

اخترقت أذنه تلك العبارة الصارمة القاسية ، مع تلك الأصابع الفولاذية ، التى قبضت على معصمه ؛ لتمنعه من إلقاء ما لديه ، فى نفس اللحظة التى برز فيها رجل ضخم الجثة أمامه ، يتطلع إليه بنظرة وحشية شرسة ، قائلاً بكل خشونة الدنيا :

- لقد انتهى أمرك .

مع آخر حروف كلماته ، شعر العميل بضربة على مؤخرة رأسه ، غاب بعدها عن الوعى تمامًا ..

ووفقًا لتقريره ، لم يدرك كم مضى عليه فاقد الوعى ، ولكنه عندما أفاق ، وجد نفسه مقيدًا بإحكام إلى مقعد ثقيل ، داخل قبو رطب ، مضاء بمصباح واحد باهت ، وجدرانه ملوثة ببقع داكنة ، افترض على الفور أنها بقع من الدم ، فى حين يجلس رجل واحد ، فى ركن القبو ، وقد أولاه ظهره ، وانهمك فى قراءة إحدى القصص المصورة البسيطة .

ولدقيقة كاملة أو يزيد ، لم ينبس العميل ببنت شفة ، وهو يبذل عدة محاولات حذرة ؛ للتخلص من قيوده ، التى لم يلبث أن أدرك قوتها ، فاستسلم لوضعه ، وغمغم فى مرارة :

- أين أنا ؟!

سؤاله المقتضب جعل ذلك الرجل فى الركن يلتفت إليه ، ويلقى مجلته المصورة أرضًا فى إهمال ، قبل أن يقول فى خشونة فظة :

ـ آه .. لقد استعدت وعيك أخيرًا .

ثم رفع صوته على نحو مزعج ، هاتفًا :

ـ لقد استعاد وعيه .

لم تمض دقيقة واحدة على ندائه ، حتى دلف ذلك الضخم الشرس إلى القبو ، وحاجباه الكثان منعقدان علي نحو مخيف ، واتجه نحو العميل مباشرة ، قائلاً :

ـ من الواضح أن رأسك لايتحمل الكثير من الضغوط يا هذا .

انكمش العميل فى مقعده ، وتمنى لحظتها لو أن الأرض قد انشقت وابتلعته ، قبل أن يذيقه ذلك الوحش العذاب ألوانًا ، وانعقد لسانه فى حلقه ، فلم يستطع النطق بحرف واحد ، حتى جذب ذلك الضخم مقعدًا ، وجلس أمامه مباشرة ، وتطلع إلى عينيه بنظرة مخيفة ، جمّدت الدماء فى عروقه ، قبل أن يسأله :

ـ لحساب من تعمل ؟!

ازدرد العميل لعابه بكل صعوبة الدنيا ، وهو يقول فى خفوت :

ـ لست أفهم ما الذى ...

قبل أن يتمّ عبارته ، دوت صفعة قاسية على وجهه ، ارتجّ لها كيانه كله ، مع صوت الضخم الخشن الفظ ، وهو يقول فى وحشية :

ـ أكثر ما أكرهه هو محاولات الخداع والاستخفاف ، فهى تبدو لى أشبه بإهانة لذكائى وبراعتى .

ثم عاد يميل نحوه ، متسائلاً بوحشية أكثر :

ـ لحساب من تعمل ؟!

كان العميل يدرك تمامًا أنه لو اعترف ، بأنه يعمل لحساب المخابرات البريطانية ، فإنه بهذا يوقّع وثيقة إعدامه بنفسه ، لذا فقد حاول عبثًا أن يجد فى حلقه لعابًا يكفى للازدراد ، وهو يجيب :

ـ صدقنى يا سيّدى .. لست ...

فى هذه المرة قاطعته لكمة كالقنبلة ، حطَّمت بالفعل إحدى أسنانه ، وكادت تنسف فكه نفسه ، مع زمجرة قاسية ، أطلقها ذلك الضخم الوحشى ، وهو يصرخ :

ـ قلت .. لا خداع .

دار رأس العميل فى عنف ، وأدرك أنه لن يستطيع احتمال هذا لساعة واحدة ، خاصة وأنه يدرك جيِّدًا أن الصفعات واللكمات ليست سوى بداية ، سيعقبها بعدها الحرق ، ونزع الأظفار ، وربما بتر الأطراف أيضًا ، حتى يدلى بما لديه فى النهاية ..

ولأن عقله قد استعرض كل ما سيواجهه ، فقد اتخذ العميل ، باعترافه نفسه قرارًا بألا يقاوم طويلاً ..

وبأن يدلى بكل ما لديه ..

وفى نفس اللحظة ، التى اتخذ فيها العميل قراره ، رفع رأسه ، ليدلى بكل ما لديه ، والدماء تسيل من

بين شفتيه ، هبَّ الضخم من مقعده فجأة ، وضرب الأرض بقدمه فى قوة ، ويده ترتفع أمامه ، صائحًا :

ـ هايل (هتلر) ..

وعندئذ ، أدرك العميل أن ضابطًا من الضباط الكبار قد وصل إلى المكان ، فرفع عينيه يتطلَّع إلى ذلك الزى الرسمى ، الذى ملأ بصره كله ، قبل أن يتطلَّع إلى وجه الضابط (شلنبرج) مباشرة ..

ومنذ اللحظة ، التى التقت فيها عيونهما ، ولسبب لم يفهمه قط ، ولم يستطع حتى شرحه فى تقريره ، أدرك العميل أن (شلنبرج) هذا سيكون له دور كبير ، فى المرحلة القادمة ..

والعجيب أنه كان على حق فى شعوره هذا ..

على حق إلى حد مذهل .

* * *

٣ ـ عرض يستحيل رفضه ..

● لدقيقة كاملـة تقريبًـا ، سـاد صمت وسـكون رهيبان ، داخل ذلك القبو الرطب ، والكل يتطلّع إلى الميجور (فالتر شلنبرج) ، الضابط الألمانى الوسيم ، الذى وقف أمامهم وقفة عسكرية صارمة ، وعيناه تفحصان العميل مباشرة ، حتى غمغم ذلك الضخم فى حذر :

ـ إنه لم يعترف بعد .

أدار (شلنبرج) عينيه إليه فى بطء ، وهو يسـأله فى صرامة :

ـ هل حصلتم على كل ما معه .

أشار الضخم إلى كيس من الورق ، فوق منضدة قريبة ، وهو يجيب فى سرعة واحترام :

ـ كل شىء هنا يا ميجور .. تمامًا كما أمرت .

بدا (شلنبرج) أكثر صرامة ، وهو يسأله :

ـ هل تم عرض هذه الأشياء ، على أى شخص آخر ؟!

هزّ الضخم رأسه نفيًا فى قوة ، وأجاب فى حسم :

ـ مطلقًا يا ميجور .. حتى نحن لم نفحصها .. لقد نفذنا أوامرك بمنتهى الدقة ، وأتينا بالرجل إلى هنا مباشرة ، دون المرور ببيت الثعالب .

فى تلك اللحظة فقط ، أدرك العميل أن هذا القبو الرطب ، ليس جزءًا من مقر (الجستابو) ، أو جهاز المخابرات النازى (إس ـ دى) ، الذى يطلق عليه اسم (بيت الثعالب) ..

وهنا وثب إلى ذهنه تساؤل قلق مخيف ..

بل عدة تساؤلات ..

ما هذا المكان إذن ؟!

ولماذا أتو به إليه ؟!

بل ، ولماذا أمر ذلك الميجور النازى ، بإحضاره إليه مباشرة ، وعدم فحص الوثائق والصور التى يحملها ؟!



حتى أصبح الضابط النازى الوسيم وحده فى القبو ، يتطلّع فى صمت صارم ، إلى العميل ..

لماذا ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

« اتركونا وحدنا .. »

قطع (شلنبرج) أفكاره ، بذلك الأمر الصارم ، الذى استقبله الرجلان بتحية عسكرية قوية ، وأسرعا ينفذانه دون أدنى اعتراض أو مناقشة ، حتى أصبح الضابط النازى الوسيم وحده فى القبو ، يتطلّع فى صمت صارم ، إلى العميل ، الذى سرت فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وحاول أن يقول شيئًا ، أى شىء ، ولكن لسانه انعقد فى حلقه ، فلم يستطع النطق بحرف واحد ، حتى سأله (شلنبرج) فجأة :

ـ أنت تعمل لحساب البريطانيين .. أليس كذلك ؟!

حدّق العميل فيه طويلاً فى صمت ، وقد امتلأت نفسه برهبة عجيبة ، جعلته غير قادر على التفوه بحرف واحد ، فجذب (شلنبرج) مقعدًا ، كما فعل الضخم من قبل ، وجلس على مسافة متر واحد

منه ، وتطلَّع إلى عينى العميل مباشرة ، وهو يقول ، بنفس الصرامة ، التى بدت وكأنها جزء من شخصيته :

ـ اسمعنى جيِّدًا يا هذا .. ما لدى نحوك ليس مجرَّد شكوك ، أو حتى افتراضات واستنتاجات .. لقد كشفت أمر علاقتك بالبريطانيين ، منذ ستة أشهر كاملة ، وقمت بمراقبتك شخصيًّا ، وعلى مسئوليتى الخاصة ، ورأيتك تلتقى برجالهم ، وتحصل على الأسرار والوثائق والمعلومات والصور من أجلهم ، وعلى الرغم من هذا فقد واصلت مراقبتك بنفسى ، حتى زالت من أعماقى كل ذرة من الشك ، وهنا .. هنا فقط ، اتخذت قرارى باعتقالك ..

بذل العميل جهدًا خرافيًا ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يغمغم فى صوت خافت مبحوح ، من شدة الانفعال والخوف :

ـ سيدى الميجور .. دعنى أؤكِّد لك أن ...

قاطعه (شلنبرج) ، فى صرامة شديدة :

ـ إياك أن تحاول النفى أو الإنكار .. قلت لك : إننى قد راقبتك بنفسى .

ثم هبَّ من مقعده بحركة حادة ، مستطردًا :

ـ لم أشأ أن يعلم هؤلاء الأوغاد بأمرك .

لم يفهم العميل ما تعنيه العبارة الأخيرة ، فتمتم فى حذر متوتر :

ـ الأوغاد ؟!

أدار (شلنبرج) ظهره له ، وهو يقول فى انفعال ، انتفض معه جسده كله فى وضوح :

ـ نعم .. أوغاد النازية .

صعقت العبارة العميل ، فحدَّق فيه بكل ذهوله ، و(شلنبرج) يستدير إليه ، قائلاً فى توتر بالغ ، شفَّت عنه كل خلجة من خلجاته :

ـ هل أدهشك هذا ؟!

غمغم العميل فى صوت مرتجف :

ـ سيِّدى .. إننى ...

لم يستطع إتمام عبارته ، من فرط ارتياعه ، فأطلق (شلنبرج) زفرة عصبية ، قبل أن يعود إلى مقعده ، قائلاً :

ـ إنك لم تخطئ السمع يا رجل .. صحيح أننى ضابط فى الجيش الألمانى ، ولكننى لا أبغض شيئًا فى الوجود ، مثلما أبغض تلك الأفكار والمبادئ النازية ، التى تقود شعبنا إلى هاوية الهلاك .

مرة أخرى لم يصدِّق العميل أذنيه ، وهو يحدِّق فى ذلك الضابط الألمانى الوسيم ، الذى يتحدَّث عن أمور ، من المستحيل أن تنساب ، من بين شفتى رجل فى مثل موقعه ورتبته ..

وفى توتر ، تراجع (شلنبرج) فى مقعده ، قائلاً :

ـ إنك لا تصدقنى .. أليس كذلك ؟!

غمغم العميل ، بكل ما تبقَّى فى جسده من قوة :

ـ وهل يصنع هذا فارقًا ؟!

أجابه (شلنبرج) بمنتهى الحزم :

ـ بالتأكيد .

نطقها ، وهبَّ من مقعده مرة أخرى ، وراح يتحرَّك داخل القبو ، فى عصبية واضحة ، قبل أن يلتفت إلى العميل بغتة ، قائلاً فى حزم :

ـ ماذا لو أننى أطلقت سراحك الآن !

حدَّق العميل فى وجهه بذهول ، غير مصدِّق لما يسمعه ، ولكن (شلنبرج) تابع بنفس الحزم :



ـ ليس هذا فحسب ، ولكننى سأحملك بنفسى أيضًا إلى الحدود ، مع كل ما جمعته من وثائق وصور ومعلومات ، وسأسمح لك بمغادرة البلاد ، دون أن يمس أحدهم شعرة واحدة من رأسك .

بلغ ذهول العميل مبلغه ، مع هذا العرض المستحيل ، وشحب صوته إلى درجة غير عادية ، وهو يهمس :

ـ أهذا ممكن ؟!

أجابه (شلنبرج) بمنتهى الحزم .

ـ بالتأكيد ، وفورًا .

هزَّ العميل رأسه ، وكأنما يحاول إيقاظ نفسه مما يسمعه ، لو أنه مجرَّد حلم ، وعاد يحدِّق فى (شلنبرج) ، الذى يقدِّم له عرضًا يستحيل رفضه ..

فمنذ سقط فى قبضة رجال جهاز (إس ـ دى) النازى البشع ، كان يتصوَّر أن الموت هو مصيره الوحيد والمحتوم ، دون أدنى مناقشة ..

ثم فجأة يأتيه عرض كهذا ، وعلى لسان ضابط مثل (فالتر شلنبرج) ، الذى تابع فى حماسة :

ـ لا أحد يعلم بأمرك ، ورجالى نفذوا العملية بناء على أوامرى الشخصية ، وطبيعة عملنا تفرض عليهم الصمت ، وعدم مناقشة ما يحدث ، حتى ولو بدا لهم غامضًا غير مفهوم ، وهذا يعنى أننى ، سواء قتلتك بلا رحمة هنا ، أو أطلقت سراحك ، فلن يعلم مخلوق واحد بمصيرك ، بل ولا حتى بهويتك .

بذل العميل جهدًا آخر ، ليتساءل فى شحوب :

ـ ماذا تريد منى بالضبط يا ميجور ، مقابل هذا ؟!

استدار إليه (شلنبرج) ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، على نحو جعل العميل يتصوَّر أنه قد فهم الأمر ، فهتف بصوته المبحوح :

ـ آه .. هل سأصبح جاسوسًا مزدوجًا ؟!

هزَّ (شلنبرج) رأسه فى حزم صارم ، لينفى الاحتمال تمامًا ، وهو يقول بلهجة حسمته تمامًا :

ـ كلاَّ بالتأكيد .

ثم اقترب من العميل ، ومال نحوه ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، حتى خُيِّل للرجل أنه اخترق كيانه حتى النخاع ، وهو يقول بمنتهى الصرامة :

- أريد موعدًا مع رجال المخابرات البريطانية .

وكانت مفاجأة للعميل ..

مفاجأة مذهلة .

* * *

٤- الاتصال ..

● انتشر الضباب كالمعتاد ، فى العاصمة البريطانية (لندن) ، فى تلك الساعة المبكرة ، من نهار أحد الأيام أوائل (فبراير) ، عام ١٩٣٩ م ، وبدأ الناس يظهرون فى الطرقات رويدًا رويدًا ، لتكتظ الشوارع بالنشاط والحركة ، وخصوصًا ذلك الشارع ، الذى يحوى أحد مقار جهاز المخابرات البريطانى (إم - آى - ٦) ..

وعلى الرغم مما بدا عليه المبنى ، من هدوء وصمت ، فى تلك الساعة ، إلا أن إحدى حجراته كانت تشهد نشاطًا مكثفًا ، ومناقشات حامية متصلة ، منذ غروب شمس اليوم السابق ..

فبمنتهى الدقة ، راح مدير المخابرات - آنذاك - (هوج سنكلير) ، يراجع مع نائبه (فنرز) ، ورجليه (بست) و(ستيفنز) تفاصيل ذلك العرض المدهش ، الذى عاد به عميلهم الألمانى ، من قلب (برلين) ..

وفى توتر واضح ، لوَّح (فنرز) بذراعه ، قائلاً :

ـ وماذا لو أنها مجرَّد خدعة ؟!

أجابه الكابتن (بست) فى اهتمام :

ـ وما الغرض منها ؟! لقد سقط عميلنا فى قبضتهم ، وكان بإمكان (شلنبرج) هذا اعتصاره ، بكل ما لديهم من وسائل بشعة ، فى جهاز (إس ـ دى) ؛ ليعلم منه كل ما يمكنه ، وعلى الرغم من هذا فقد أطلق سراحه ، وقاده بنفسه إلى الحدود الهولندية ، وساعده على الخروج من (ألمانيا) كلها ، بل وأعاد إليه كل ما حصل عليه ، من وثائق وأسرار وصور ؛ كدليل على حسن النوايا ، فلماذا يتجشَّم كل هذا الجهد ، لمجرَّد الاتصال بنا ، لو لم يكن أحد المنشقين العسكريين بالفعل ؟!

أشار (سنكلير) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ لاحظ أن عميلنا هذا كان يحتلّ منصبًا مرموقًا ، فى الأوساط النازية ، وعندما أعاده (شلنبرج) هذا

إلينا ، أنهى عمله ومهمته داخل (برلين) ، مما يعدّ خسارة فادحة بالنسبة لنا ، ومكسبًا كبيرًا للنازيين أيضًا .

اندفع الميجور (ستيفنز) يقول :

ـ لم يكن هناك حل آخر ، بعد أن صارحه بكل ما لديه ، وبعد أن ألقى رجاله القبض عليه بالفعل ، وإلا فستصبح هناك احتمالات لا حصر لها ، لوقوع أخطاء صغيرة ، قد تؤدى إلى تحطيم (شلنبرج) نفسه ، فى مناخ كهذا الذى تعيشه (ألمانيا) الآن .

صمت (سنكلير) بضع لحظات ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ هذا يبدو منطقيًا .

عاد (فنرز) يلوِّح بيده ، قائلاً :

ـ ما زلت لا أثق بما يحدث .

تبادل (بست) و(ستيفنز) نظرة صامتة ، حملت الكثير من المعانى ، قبل أن يقول الأخير فى حزم :

ـ أنا وزميلى أيضًا لم نثق بالأمر فى البداية ، عندما عاد إلينا عميلنا من (برلين) ، حاملاً عرض الميجور (شلنبرج) ، وهذا ما منعنا من طرح الأمر عليكم فورًا .

واندفع (بست) يضيف :

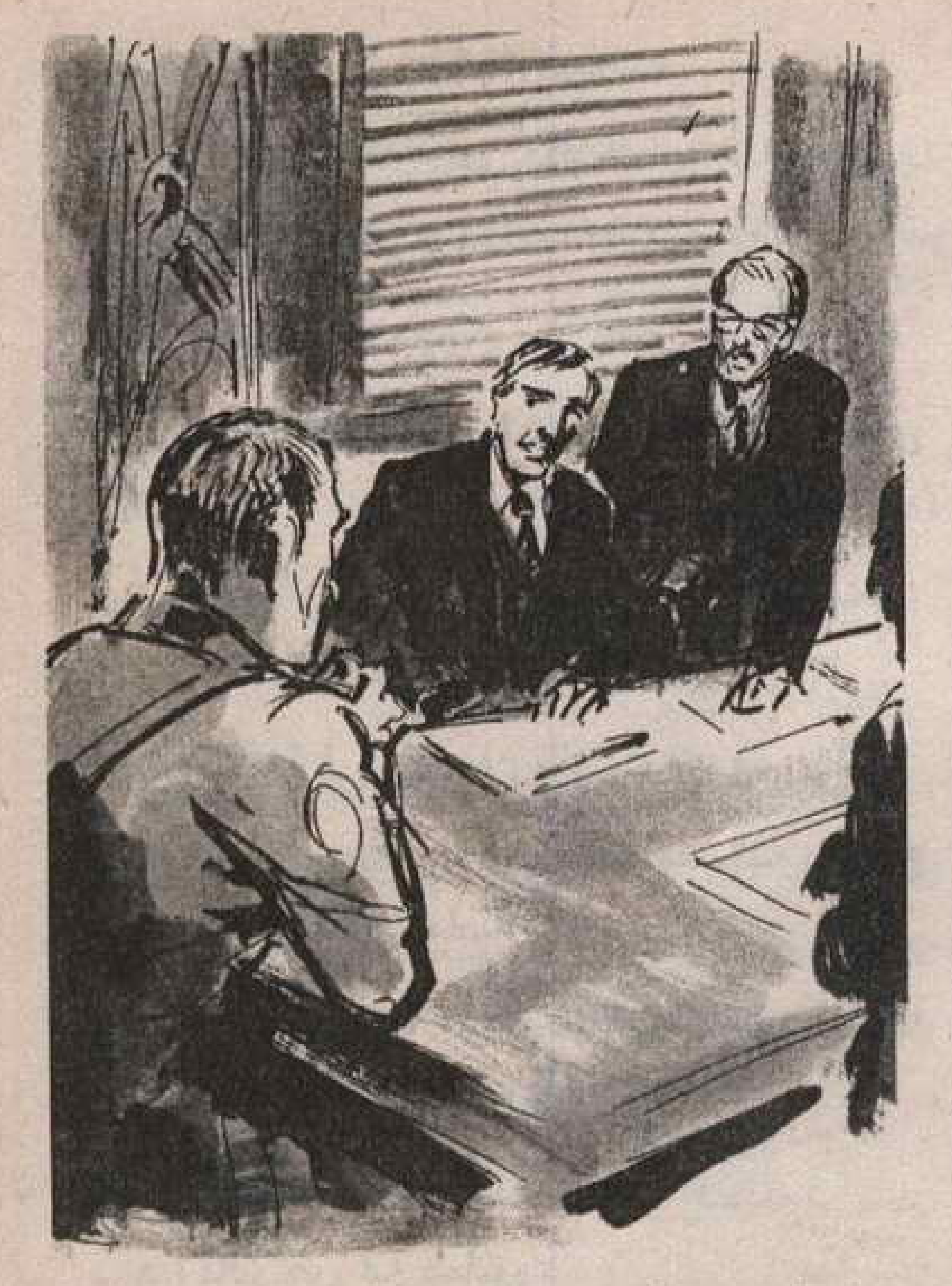
ـ كان علينا أن نجرى بعض التحريات ، ونجمع بعض المعلومات أوَّلاً .

سألهما (سنكلير) فى اهتمام :

ـ وما الذى توصَّلت إليه تحرياتكما ومعلوماتكما ؟!

تبادلا نظرة صامتة أخرى ، وكأنهما ينتخبان المتحدِّث من بينهما ، قبل أن يتنحنح (بست) ، قائلاً :

ـ لقد حصلنا على معلومات مؤكَّدة ، بخصوص وجود حركة مضادة ، فى صفوف الجيش الألمانى ، ولدينا الآن بعض الأدلة فى هذا الشأن .



سألهما (سنكلير) فى اهتمام :
ـ وما الذى توصَّلت إليه تحرياتكما ومعلوماتكما ؟!

تساءل (فنرز) ، بمنتهى الاهتمام :

ـ وماذا عن (شلنبرج) نفسه ؟!

اندفع (ستيفنز) ، مجيبًا :

ـ لم نجد أى دليل ، يشير إلى انضمامه إلى المنشقين .

انعقد حاجبا (سنكلير) فى شدة ، ولكن (بست) أضاف فى حزم وحسم :

ـ وهذه نقطة فى صالحه ، وليست ضده .

ارتفع حاجبا (سنكلير) فى دهشة متسائلة ، فتابع (بست) فى سرعة وحماسة :

ـ فعدم وجود ما يدينه ، يعنى أن الرجل حذر وذكى ، وناجح فى إخفاء حقيقة مشاعره تمامًا .

قال (فنرز) فى صرامة :

ـ هذا بافتراض أنه صادق .

فجرّت عبارته قنبلة من الصمت فى المكان ، وتراجع

الجميع فى مقاعدهم ، وبدا وكأن الحوار لن يتصل بينهم مرة أخرى ، لولا أن قال (سنكلير) فجأة :

ـ لا مفرّ من المجازفة .

اعتدل الكل فى مقاعدهم دفعة واحدة ، وتساءل (ستيفنز) فى حذر :

ـ أيعنى هذا أن ...

قاطعه (سنكلير) فى حزم :

ـ يعنى أننا أمام احتمالين ، لا ثالث لهما ، فإما أن نكون أمام أكبر خدعة فى عالم المخابرات ، أو أمام أكبر فرصة فى التاريخ ؛ بمساندة نظام مناوئ للحكم النازى .

ثم مال إلى الأمام ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضرب سطح المنضدة براحته ، مضيفًا بكل الصراحة :

ـ ولست أنوى إضاعة الفرصة أبدًا .

بدا الانتعاش على وجهى (بست) و(ستيفنز)، فى حين قال (فنرز) فى صرامة متوترة :

- مازلت أخشى أن تكون مجردً خدعة ..

أجابه (سنكلير) فى حزم :

- سنتخذ الاحتياطات إزاء هذا .

ثم التفت إلى (بست) و(ستيفنز)، مستطردًا :

- فليكن .. ضعا خطة حذرة، وابدءا الاتصال .. فورًا .

وكانت هذه هى البداية ..

★ ★ ★

« إنها الثامنة إلا الربع .. من المفترض أن يظهر، خلال خمس عشرة دقيقة ..»

غمغم (ستيفنز) بالعبارة، وهو يلقى نظرة على ساعته، داخل تلك السيارة الصغيرة، بالقرب من الحدود الألمانية، فى ليلة الثامن من نوفمبر ١٩٣٩م، فالتقط (بست) نفسًا عميقًا، وقال :

- أنت تعرف (شلنبرج) .. إنه دقيق دومًا فى مواعيده .

غمغم (ستيفنز)، فى شىء من الحنق :

- أعرف هذا بالتأكيد .

التفت إليه (بست)، وتطلّع إليه بضع لحظات فى حيرة، قبل أن يسأله فى اهتمام قلق :

- أنت لا تميل إلى (شلنبرج) .. أليس كذلك ؟!

أشاح (ستيفنز) بوجهه، مجيبًا فى توتر :

- وهل تميل إليه أنت ؟!

مطّ (بست) شفتيه، قائلاً :

- عملنا لا صلة له بالعواطف الشخصية، فكل ما يهمنا هو أن (شلنبرج) يقود مجموعة متميزة من المنشقين، وتعاوننا معهم، فى مثل هذه الظروف، كفيل بتغيير وجه التاريخ إلى الأبد .

زفر (ستيفنز) فى عصبية، مغمغمًا :

- هذا صحيح .

ابتسم (بست)، محاولاً تهدئة الموقف، وهو يقول:

- ثم إنك تعلم أن الأوامر مشدَّدة للغاية هذه المرة.

ثم مال نحوه، مضيفًا:

- أوامر رئيس الوزراء شخصيًا.

ولم ينبس (ستيفنز) ببنت شفة، فقد كان يدرك جيِّدًا صحة ما يقوله زميله (بست)..

ففى هذه المرة، لم يكن لديهما خيار..

لقد تطوَّرت الأمور، فى الأشهر القليلة الماضية، على نحو مخيف، جعل الاتصال بالميجور الألمانى (شلنبرج)، ومجموعته من المنشقين العسكريين، أمرًا حتميًا لا يقبل الجدل..

أو حتى التأجيل..

لحظة واحدة.

* * *

٥ ـ منتهى الحذر..

● فجأة، بدأ الفوهلر الألمانى (أدولف هتلر)، فى تنفيذ مخططاته الاستعمارية التوسعية؛ لمد نفوذ (ألمانيا) النازية، إلى (أوروبا) كلها..



لم يكن هذا مفاجئًا للجميع فى حد ذاته، إلا أن البداية جاءت دون أن يتوقَّعها أحد بحجة استعادة (ألمانيا) ما فقدته فى الحرب العالمية الأولى، بسبب معاهدة (فرساى) للاستسلام..

وعلى الرغم من وضوح الصورة وقوتها ، التزمت معظم بلدان (أوروبا) بالحذر ، ورفضت إعلان الحرب على (ألمانيا) ، ما لم تحتم الظروف هذا ..

وفى مبنى المخابرات البريطانية ، بدا (فنرز) أكثر توترًا ، من أى وقت مضى ، وهو يراجع تفاصيل ذلك اللقاء ، المفترض حدوثه ، بين رجليه (بست) و(ستيفنز) ، مع مندوب المنشق الألمانى (شلنبرج) ، فى العاصمة السويسرية (برن) ..

ومع عصبيته الفائقة ، مال رئيسه (سنكلير) نحوه ، يسأله :

ـ ماذا بك يا (فنرز) ؟!

أشار (فنرز) بيده ، قائلاً :

ـ لست أشعر بالارتياح لما يحدث .

تراجع (سنكلير) فى مقعده ، متسائلاً :

ـ ألم نناقش هذا الأمر من قبل ؟!

مط (فنرز) شفتيه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ (شلنبرج) هذا ضابط ، فى جهاز (إس ـ دى) النازى ، وأمثاله يتم انتقاؤهم بمنتهى الدقة ، ولا يمكننى تصديق أو استيعاب فكرة انشقاقه عن الحزب النازى ، الذى وضعه فى هذه المكانة .

قال (سنكلير) فى بطء :

ـ كل شخص له أسبابه .

صاح (فنرز) فى جدة :

ـ اذكر لى سببًا واحدًا .

التقط (سنكلير) نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ إنه لا توجد فائدة واحدة ، من بذل كل هذا الجهد لخداعنا ، فهو كضابط فى جهاز (إس ـ دى) ، يعلم جيدًا أننا لن نوليه ثقتنا كاملة ، بأى حال من الأحوال ، ولن نطالبه بالعمل لحسابنا .. بل ولن نحاول حتى أن نفعل .. كل ما سنقوم به ، هو أن

نساعده ورفاقه ، على القيام بمهمتهم ، والسعى إلى إسقاط ذلك الديكتاتور النازى ، بعد أن كشَّر عن أنيابه بالفعل ، وأصبح إسقاطه هو الوسيلة المثلى ، لدرء خطر الحرب عن (أوروبا) كلها ..

صمت (فنرز) تمامًا ، كما لو أن الجواب قد أقنعه ، إلا أنه لم يلبث أن غمغم :

ـ لماذا لا أشعر بالارتياح إذن ؟!

تراجع (سنكلير) فى مقعده ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، وهو يجيب :

ـ لأن هذا يناسب طبيعتك ، كرجل مخابرات قديم .

صمت (فنرز) لحظة أخرى ، ثم تمتم :

ـ نعم .. ربما .

نطقها ، وهو يتطلَّع إلى ساعته ، بكل توتر الدنيا ، ففى تلك اللحظة بالذات ، كان من المفترض أن يلتقى رجلاه بذلك المنشق الألمانى ، لتبدأ العملية ..

أو الخدعة ..

الخدعة الكبرى ..

★ ★ ★

حتى عندما اشتعلت الحرب إلى أوجها ، لم تتغير (برن) كثيرًا ..

لقد ظلت هادئة ، بسيطة ، متألِّقة ، بحكم حياد (سويسرا) الشهير ، وظلت حدودها مفتوحة للجميع ، على نحو جعلها ملتقى كل القوى ، وكل الاتجاهات ، فى تلك المرحلة العصيبة ..

وفى شارع هادئ ، من شوارع (برن) ، جلس (بست) و(ستيفنز) ، فى ثياب مدنية أنيقة ، على مقعدين خشبيين بسيطين ، فى واحدة من أكبر حدائق العاصمة ، والأوَّل يغمغم :

ـ تُرى كيف سيبدو ؟!

كان (ستيفنز) يدرك جيِّدًا ما يعنيه السؤال ، وعلى الرغم من هذا ، فقد اعتدل قائلاً :

ـ من تقصد ؟!

اعتدل (بست) بدوره ، وهو يقول :

ـ المندوب الذى سيرسله (شلنبرج) .. أعنى أهو ألمانى أم أحد السويسريين ، الذين يعملون لحساب المخابرات الألمانية فى قلب (برن) ؟!

مطَّ (ستيفنز) شفتيه ، قائلاً :

ـ لن يصنع هذا فارقًا كبيرًا بالنسبة لى ؛ فقد كنت أفضّل أن ألتقى بالرجل نفسه .. على الأقل حتى يمكننى سبر أغواره واستنباط دوافعه الحقيقية .

تنهَّد (بست) ، وتراجع فى مقعده ، وهو يقول :

ـ من الطبيعى ألا يمكنه الحضور شخصيًا ، بعد أن دارت آلة الحرب الألمانية بالفعل .

غمغم (ستيفنز) :

ـ نعم .. من الطبيعى ألا يفعل .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سمع كلاهما من خلفهما

صوتًا هادئًا ، يقول بلغة إنجليزية سليمة ، ذات لكنة ألمانية واضحة :

ـ جليد (سويسرا) يشبه ثلوج (برلين) .

تسمرّ كلاهما فى مكانه ، مع سماعهما عبارة السر المتفق عليها ، وهم (بست) بالالتفاف خلفه ، لرؤية قائل العبارة ، إلا أن (ستيفنز) استوقفه بحركة حازمة ، وهو يقول :

ـ شمس (لندن) ستذيب هذا وذاك .

أجابه الرجل من خلفهما بنفس الهدوء :

ـ وسيلتهم الفيضان كل شىء .

نطق المفتاح الأخير لعبارة اللقاء ، ثم سار فى طريقه ، وكأنه لا شأن له بهما على الإطلاق ..

ووفقًا للتعليمات ، نهض الاثنان يتبعانه ، دون أن ينبس أحدهما بحرف واحد ..

كان قوى البنيان ، ممشوق القوام ، يرتدى معطفًا

أسود أنيقًا ، ويسير فى هدوء واثق ، عبر شوارع (برن) ، حتى بلغ بناية كبيرة ، تضمّ سوقًا تجاريًا ضخمًا ، فدلف إليها ، ثم توقّف ، ليترك لهما فرصة اللحاق به ..

وعندما بلغاه ، قال (ستيفنز) ، فى شىء من الصرامة :

ـ فلتعلم أنه لا يروق لنا أن نلتقى بوسيط ، فى أمر كهذا .

أجابه الرجل فى هدوء :

ـ أنت تلتقى بوسيط ، فى كل الأحوال .

ومع إجابته ، أدار وجهه إليهما ، وخفض ياقتى معطفه ، و ...

وسرت قشعريرة باردة ، فى جسد (بست) ، فى حين انعقد حاجبا (ستيفنز) فى شدة ؛ فذلك الواقف أمامهما لم يكن وسيطًا ، بل كان الميجور (فالتر شلنبرج) ..

شخصيًا ..

★ ★ ★

المبرّر الوحيد ، الذى أورده (بست) و(ستيفنز) فى تقريرهما ، لإعلان (شلنبرج) عن إرسال وسيط ، ثم الحضور بنفسه ، هو أن الرجل بطبعه حذر للغاية ، إلى الحد الذى جعله يتعامل مع الموقف بأسلوب معقّد ، خشية أن تنكشف خطته ، بأى حال من الأحوال ..

ولكن المهم هو أنهما قد التقيا به أخيرًا ، وجهًا لوجه ..

وتحدث ثلاثتهم كثيرًا .. وطويلاً ..

وفى ذلك اللقاء ، أخبرهما (شلنبرج) أنه واحد من مجموعة ضباط ، من أفرع الجيش المختلفة ، تجمعهم كراهيتهم لنظام الحكم النازى ، ورغبتهم المستعرة فى إسقاطه ، وأنهم يعملون خفية ، وفقًا لخطة تتبع قواعد فى منتهى الحذر والسرية ؛ لتكوين خلية ضخمة ، بمقدورها القيام بثورة ، كتلك التى أسقطت (ألمانيا) ، فى الحرب العالمية الأولى ..

وبخطوط بسيطة ، ودون الدخول فى التفاصيل ، شرح لهما (شلنبرج) أسلوب تنظيم المجموعة ، وقدراتها ، واحتياجاتها ، مؤكدًا أن كل ما يطلبونه هو بعض الدعم المادى ، مع وعد من البريطانيين بعدم استغلال ضعف (ألمانيا) ، خلال فترة إسقاط النظام النازى ، للانقضاض عليها واحتلالها ..

كان حديثه هادئًا ومقنعًا ، ومنطقيًا إلى حد كبير ، وكذلك مطالبه ، ولكن (بست) و(ستيفنز) كرجلى مخابرات محترفين ، لم يلقيا إليه أية أجوبة ، وإنما سجلا كل ما قاله ، وصافحاه فى نهاية اللقاء ، مع تحديد موعد للقاء آخر ، ونقل كل مطالبه للمسئولين ..

ومن (برن) ، عاد (شلنبرج) إلى (برلين) ، فى حين اتجه (بست) و(ستيفنز) مباشرة إلى (لندن) ، دون أن يدركا أن ما حملاه معهما سيقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

وبمنتهى العنف .

★ ★ ★

٦ - قرار سياسى ..

● من الأمور التى يجهلها العديدون ، أن عمل أجهزة المخابرات ليس عسكريًا بالدرجة الأولى ، ولكنه يعد أحد أعمال السيادة والسياسة ، ليس لوسائله ، ولكن لنتائجه ، التى هى فى نهايتها نتائج سياسية محضة ، مهما اتخذت من صور وسيطة ، خلال مرحلة التنفيذ ..

ولهذا السبب ، كان من الطبيعى أن يحمل مدير المخابرات البريطانية (هوج سنكلير) تقارير (بست) و(ستيفنز) ؛ ليضعها كلها أمام رئيس الوزراء البريطانى - آنذاك - (نفيل تشامبرلين) ..

وفى ظروف أوربية مشتعلة كهذه ، كان من الطبيعى أن يلغى رئيس الوزراء البريطانى كل مواعيده ، وأن يجتمع طويلاً بالأدميرال (سنكلير) ؛ ويستمع إلى كل التفاصيل ، ويقرأ بنفسه كل التقارير ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويتساءل فى حذر متوتر :

- هذا أمر خطير للغاية يا (سنكلير) .. أأنتم واثقون من صحة كل هذا ؟!

أومأ (سنكلير) برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى حزم :

- تمام الثقة يا سيادة رئيس الوزراء .. نائبى (فنرز) كان المتشكك الوحيد ، ولكنه ، بعد لقاء رجلينا بذلك الألمانى (شلنبرج) ، أصبح أحد كبار المتحمسين للعملية كلها .

هزَّ رئيس الوزراء البريطانى رأسه متفهمًا ، قبل أن يقول :

- إنها فرصة مدهشة وفريدة بالفعل .

ارتسمت ابتسامة على شفتى (سنكلير) ، لولا أن استدرك (تشامبرلين) فى توتر :

- ولكن من الخطر المجازفة بإثارة غضب (هتلر) ، فى ظروف دقيقة كهذه .

احتقن وجه (سنكلير) ، وهو يندفع ، قائلاً :

- ومن الخطر أكثر أن نتركه يعيث الفساد ، فى كل مكان من حوله ، دون أن نبذل ولو محاولة واحدة لتحجيمه .

حدَّق رئيس الوزراء فى وجهه بدهشة مستنكرة ، جعلت (سنكلير) يدرك فداحة تجاوزه ، فتراجع فى مقعده ، وكتم مشاعره وأنفاسه ؛ وهو يغمغم فى توتر :

- ولكن القرار لك بالتأكيد ، يا سيادة رئيس الوزراء .

تراجع (تشامبرلين) فى مقعده ، وشبَّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يتطلَّع طويلاً إلى (سنكلير) ، فى صمت وتفكير عميقين ، قبل أن يعتدل فجأة ، قائلاً فى حزم :

- فليكن يا سير (سنكلير) .. سنمسك العصا من منتصفها كما يقولون .. سنبقى على خط الاتصالات ، بيننا وبين (شلنبرج) ومجموعته ، ولكننا لن نمنحهم

التمويل الكافى فى الوقت الحالى ، فى حين سنواصل مباحثاتنا السياسية مع الحكومة النازية ، حرصًا على حسن سير الأمور .

لم يرق هذا لمدير المخابرات البريطانى ، إلا أنه أدرك لحظتها أن القرار سياسى محض ، لذا فقد نهض كمقدمة لإنهاء اللقاء ، وهو يقول :

ـ فليكن يا سيادة رئيس الوزراء ، إنه قراركم على أية حال .

استوقفه (تشامبرلين) بإشارة من يده ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ ولكن تذكَّر يا سير (سنكلير) .. حتى يصدر أمر واضح مباشر ، بالاتصال بالمنشقين العسكريين الألمانيين ، وتمويلهم ، لن تكون لنا صلة رسمية بما يحدث .

تنهَّد (سنكلير) ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ هذا أمر مفهوم بالتأكيد يا سيِّدى ..

وعندما افترقا ، كان (سنكلير) يتصوَّر أن رئيس الوزراء المتحفِّظ ، الذى يخشى إغضاب ديكتاتور (ألمانيا) النازى ، لن يصدر الأمر ببدء عملية تمويل المنشقين الألمان أبدًا ..

ولكنه كان مخطئًا فى الواقع ..

مخطئًا تمامًا ..

* * *

انطلقت زفرة ملتهبة كالحمم ، من صدر (ستيفنز) ، وهو يتطلَّع عبر زجاج السيارة الصغيرة ، إلى الجزء الواضح من الطريق ، الذى يقود إلى تلك النقطة الحدودية الهولندية ، عند الحدود الألمانية ، فى ليلة الثامن من نوفمبر ، عام ١٩٣٩ م ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، محاولاً إجبار نفسه على الاسترخاء ، على الرغم من توتر الموقف ، مغمغمًا :

ـ المفترض أن يظهر فى أية لحظة .

غمغم (بست) ، بصوت لا يقل عنه توترًا وانفعالاً :

ـ إنه لم يخلف موعدًا قط .

زفر (ستيفنز) مرة أخرى ، قائلاً :

ـ هذا الموعد يختلف .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى عصبية :

ـ إنه سيحسم الأمور كلها .

ربَّت (بست) على ركبته ، مغمغمًا :

ـ اهدأ يا رجل .. إنها مجرَّد دقائق .

قال (ستيفنز) بعصبية أكثر :

ـ أتعشَّم هذا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى لاح ضوء مصباحى سيارة من بعيد ، أضيئا وانطفآ مرتين متعاقبتين ، فاعتدل الاثنان فى مقعديهما ، وقال (بست) فى انفعال :

ـ لقد وصل .

تحسَّس (ستيفنز) مسدسه ، وهو يقول فى توتر :

ـ المهم أن يكون قد أحضر الباقين معه .

تمتم (بست) ، محاولاً اختراق حجب الظلام ببصره ، بعد أن انطفأ مصباحا السيارة تمامًا ، بعدما أدت الإشارة المتفق عليها :

ـ سيفعل بالتأكيد .

نطقها ، فى محاولة لتهدئة أعصاب زميله ، على الرغم من أنه كان يشعر فى أعماقه بقلق مبهم ..

قلق عجيب ، جعله يشعر بأن هذا اللقاء بالذات ، سيختلف عن كل ما سبقه ، وستكون له نتائج خطيرة ..

خطيرة للغاية ..

* * *

منذ اتخذ رئيس الوزراء البريطانى قراره ، بإمساك العصا من منتصفها ، بدأت عملية الاتصال بالمنشقين



تمتم (بست) ، محاولاً اختراق حجب الظلام ببصره ، بعد أن انطفأ مصباحا السيارة تماماً ..

العسكريين الألمان تتخذ مسارًا مميَّعًا إلى حد ما ، على الرغم من تواصل الاتصال بالضابط الألمانى (شلنبرج) ، الذى شكا أكثر من مرة ، من ضعف التمويل ، وإضاعة الوقت فى روتينيات بيروقراطية معقدة ، دون القيام بإجراءات حاسمة ، أو اتخاذ قرارات حازمة ..

وعلى الرغم من استمرار (بست) و(ستيفنز) فى عملهما ، ومن التقائهما بالألمانى (شلنبرج) مرتين أخريين ، خلال الفترة من أوائل مارس ، وحتى أوائل سبتمبر ١٩٣٩م ، إلا أنهما قد فقدا الحماسة للعملية إلى حد ما ، خاصة وأن شيئًا ما فى (شلنبرج) لم يكن يروق للميجور (ستيفنز) ، على عكس زميله (بست) ، الذى كان يرى أن ذلك الألمانى نموذج مثالى لأى رجل مخابرات ، أيًا كانت هويته ، فهو رياضى ، ممشوق القوام ، هادئ الحديث ، يطلّ الذكاء من عينيه فى وضوح ، ويتروّى ليفكّر جيدًا ، قبل أن يدلى بأى رأى ..

ولكن اختلافهما هذا كان محصورًا بينهما فحسب ، فلم تتضمنّه تقاريرهما الرسمية ، أو يبلغا به رؤساءهما ، الذين استشفوا الأمر من أسلوبهما فى الحديث عن (شلنبرج) ، كما أشار نائب مدير المخابرات (فنرز) ، فى أحد تقاريره السرية ، التى لم تنشر إلا بعد سنوات طوال ..

ثم فجأة ، تطوّرت الحرب ، وتطوّرت معها كل الأمور ..

ففى أغسطس ١٩٣٩ م ، عقد (هتلر) مع الاتحاد السوفيتى ميثاق عدم الاعتداء ، وأصبح حرًّا فى قطع مفاوضاته مع دول (أوروبا) ، ثم هاجم (بولندا) ، فى الأوّل من سبتمبر ، مما دفع (إنجلترا) ، وغالبية دول الكومنولث ، و(فرنسا) إلى إعلان الحرب على (ألمانيا) رسميًّا ، فى الثالث من سبتمبر ، من العام نفسه ..

ومع إعلان الحرب ، تم استدعاء (هوج سنكلير) لمقابلة رئيس الوزراء (تشامبرلين) فورًا ، ودون إضاعة لحظة واحدة ..

وفور دخول (سنكلير) إلى مكتب (تشامبرلين) ، بادره هذا الأخير فى حماسة وحزم :

– عمليتكم أصبحت الأمل الأكبر ، فى أن تنتهى الحرب سريعًا .

ثم مال نحوه ، مضيفًا فى انفعال :

– الاتصال بأولئك المنشقين صار حيويًّا للغاية .

سأله (سنكلير) فى حذر :

– سيادة رئيس الوزراء ، هل يعنى هذا أنك قد أصدرت الأمر ، ببدء عملية المنشقين الألمان بالفعل ؟!

ناوله (تشامبرلين) ورقة تحمل توقيعه ، وهو يجيب فى حزم :

– وفورًا .

لم يدر كلاهما لحظتها ، أن ذلك القرار سيحمل لهما مفاجأة ..

أكبر مفاجأة .

* * *

٧ ـ المفاجأة ..

● مع صدور قرار رئيس الوزراء البريطانى ، تنشيط وإحياء عملية الاتصال المباشر ، مع (شلنبرج) ورجاله ، عاد النشاط والحماسة يدبان فى نفسى الكابتن (بست) والميجور (ستيفنز) مرة أخرى ..

وبعد اجتماع دام ثلاث ساعات متصلة ، بين (سنكلير) و(فينرز) ، ورجلى المخابرات ، تقرَّر الاتصال بالألمانى ، وإبلاغه بتطوّر الموقف ، وبضرورة عقد لقاء مباشر ، فى أقرب فرصة ممكنة ؛ لتحديد خطوات المرحلة القادمة ، وتقديم كل التسهيلات والخدمات ، ووسائل التمويل الممكنة ..

وهنا ، اقترح (بست) ألا يتمَ لقاء (شلنبرج) وحده ، وإنما الإصرار على مقابلة بعض الضباط المشاركين معه فى تلك الخلية المنشقَّة ؛ كضمان لصدق مزاعمه قبل التعامل معه بهذا الانفتاح ..

ولقد وافق الكل على هذا الاقتراح ، دون استثناء واحد ..

وعن طريق عميل ألمانى آخر ، تم إبلاغ (شلنبرج) بالأمر ، وبأهمية الوقت البالغة هذه المرة ..

وفى الأوّل من نوفمبر ١٩٣٩م ، وصلت إلى المخابرات البريطانية رسالة من (شلنبرج) ، بخطه وتوقيعه ، والكود السرى المتفق عليه ، للتأكُّد من صحة الرسالة ، مع تحديد موعد للقاء بالمجموعة القيادية للضباط المنشقين ، فى الثامن من نوفمبر ، عند تلك النقطة الحدودية الهولندية ..

وكالمتبع ، كانت الرسالة ، المكتوبة بشفرة خاصة ، تحدِّد وسيلة التعارف ، والإشارة السرية ، ومكان اللقاء بالتحديد ..

وفى هذه المرة ، كان الاجتماع طويلاً ..

طويلاً للغاية ..

لقد استغرق أربع عشرة ساعة كاملة ، أعاد خلالها رجال المخابرات البريطانيون مراجعة وفحص وتقييم

كل سطر ، وكل كلمة ، بل وكل حرف ، فى تقارير (بست) و(ستيفنز) ، مع إعادة دراسة الموقف كله ، بمنتهى الدقة والحذر ، قبل أن يتساءل (فينرز) :

ـ قبل أن ننهى الاجتماع ، ألا يتصوَّر أحدكم أن تكون هذه مجرَّد خدعة ؟!

ابتسم (بست) فى ثقة ، وهزَّ كتفه ، قائلاً :

ـ وما الذى يمكن أن يفعله (شلنبرج) ، على أرض (هولندا) المحايدة ؟!

أشار (فينرز) بيده ، قائلاً :

ـ النازيون مجانين ، ويمكنك أن تتوقَّع منهم أية تجاوزات .

تبادل (بست) نظرة مع (ستيفنز) ، قبل أن يقول هذا الأخير :

ـ لكل شىء حدود .

عقَّب (فينرز) فى سرعة :

ـ إلا هؤلاء الأوغاد .

مطَّ (سنكلير) شفتيه ، على نحو يوحى بأن هذا لم يرق له ، وهو يقول فى حزم وصرامة :

ـ رئيس الوزراء أصدر أمرًا بتنفيذ العملية ، ولم تعد هناك أية إمكانية للتراجع .

صمت (فينرز) بضع لحظات ، قبل أن يتراجع ، متمتمًا :

ـ فليكن .

اعتدل (سنكلير) على مقعده ، وشدَّ قامته فى حزم ، وهو يواجه (بست) و(ستيفنز) ، قائلاً بلهجة آمرة صارمة :

ـ استعدا لذلك اللقاء ، وأريد مقابلتنا فور عودتكما منه .

أجابه الاثنان ، فى آن واحد :

ـ بالتأكيد يا سيِّدى ..

ولكن الشىء الذى لم يدركاه ، ولم يدركه أى من الحاضرين ، هو أن هذا لن يحدث أبدًا ..

فذلك اللقاء ، كان آخر لقاء يجمعهما بسير (هوج سنكلير) ..

على الإطلاق ..

* * *

الانتصارات المدهشة ، التى حققتها (ألمانيا) ، على جبهات القتال المختلفة ، حولت (أدولف هتلر) ، من ظاهرة مثيرة للاهتمام ، إلى أسطورة حية بكل المقاييس والتقديرات ..

لقد انبهر به الشعب الألمانى ، الذى تجاوز معه مرارة هزيمة الحرب العالمية الأولى واستعاد به زهوة النصر ، والتفوق الآرى اللامحدود ..

وأصبحت خطبه الحماسية الملتهبة بمثابة أحاديث مقدّسة ، يرددها الكل لوقت طويل ، ويحفظها بعضهم عن ظهر قلب ؛ ليتخذ منها عبرة وحكمة فيما بعد ..

ومع التكتيك المبهر ، الذى اتبعه (هتلر) فى غزو (بولندا) ، باستخدام قوات الصاعقة ، وانتصاره الساحق هناك ، على الرغم من معارضة معظم جنرالاته وقواده العكسريين المحنكين ، اعترف له الكل بالعبقرية ، وخضع له الجميع عن اقتناع ، وراحوا يطيعونه بلا مناقشة ، وينفذون أوامره بلا جدال ..

وبلا تفكير أيضًا ..

وفى تلك الليلة ، من الأسبوع الأوَّل من نوفمبر ، عام ١٩٣٩ م ، وبعد أن انتهى الفوهلر من إلقاء إحدى خطبه الملتهبة ، التى هزَّت ليس الشعب الألمانى وحده ، وإنما (أوروبا) كلها ، بعد الإنذار الذى وجهه خلالها إلى (فرنسا) و(إنجلترا) ، ليطالبهما بالاستسلام ، دون قيد أو شرط ، تبعه (هنريش هملر) مدير (الجستابو) وجهاز (إس ـ دى) حتى سيارته ، ثم ناوله ملفًا كبيرًا ، قبل أن يدلف إليها ، فتوقَّف الفوهلر ؛ ليسأله بصرامته المعهودة :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه (هملر) فى هدوء :

ـ ملف عملية الضابط (شلنبرج) .

مطَّ (هتلر) شفتيه ، على نحو لايمكن أن تستشف معه ما يعنيه ، وهو يلقى نظرة ضجرة على الملف الضخم ، متسائلاً :

ـ وما المطلوب بشأنه ؟!

أجابه (هملر) فى سرعة :

ـ الأمر خطير للغاية ، والعملية تحتاج إلى أمر مباشر منكم ، قبل الشروع فى تنفيذها .

مطَّ (أدولف هتلر) شفتيه مرة أخرى ، قبل أن يقول فى اقتضاب صارم :

ـ نفذ .

قالها ، ودلف إلى السيارة فى حزم ، فدقَّ (همـلر) كعبيه ببعضهما ، وهو يقول فى قوة :

ـ هايل (هتلر) ..

ومع ابتعاد سيارة الزعيم ، وسط هتافات الجماهير ، وحماستهم الطاغية ، ابتسم (همـلر) ابتسامة مخيفة ، وهو يلقى نظرة على ملف (شلنبرج) ، مغمغمًا :

ـ نعم .. سننفذ أيها الفوهلر .

واتسعت ابتسامته أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

★ ★ ★

على الرغم من أن عقارب الساعة لم تتحركْ لدقيقة واحدة ، بعد الإشارة المتفق عليها ، إلا أن تلك الثوانى قد بدت أشبه بدهر كامل ، بالنسبة لضابطى المخابرات البريطانيين ، اللذين شملهما صمت ثقيل مهيب ، وهما يحدقان فى الظلام ، فى انتظار وصول (شلنبرج) ومجموعته ، فى أية لحظة ..

كان الكوخ الخشبى لنقطة الحدود الهولندية يبدو لهما واضحًا ، من مكمنهما هذا ، بكل ما نال حراسه من تعب وملل ، و ...

وفجأة ، انقضَّت سيارة ألمانية الصنع على الكوخ ، لتحطمه مع حاجز الحدود تمامًا ، وتتحطَّم معه أيضًا ..

وفى لحظة واحدة ، وبتناسق مذهل ، وثب أربعة رجال من السيارة ، وراحوا يطلقون النار على حرس الحدود الهولنديين ، بغزارة وشراسة لا حدود لهما ، وخاصة بالنسبة لبلد محايد مثل (هولندا) ..

وكمحترفين ، سحب (بست) و(ستيفنز) مسدسيهما ،

ودفع كل منهما باب السيارة المجاور له ، واندفعا محاولين التدخل ، أو حماية نفسيهما على الأقل ..

ولكن فجأة ، وجدا كومة من فوهات المدافع الآلية فى وجهيهما ، مع هتاف صارم ، يقول بالألمانية ، دون أية محاولة للترجمة :

ـ حركة واحدة ، وننسفكما بلا رحمة .

ولم يكن هناك سبيل للمقاومة ، أو حتى للتفكير فيها ، مع ذلك الفارق الملحوظ ، فى العدد والسلاح ، لذا فقد استسلم رجلا المخابرات البريطانية ، وألقيا سلاحهما أرضًا ..

وفى لحظة واحدة ، انشقت الأرض عن سيارة ألمانية أخرى ، دفع المسلحون رجلى المخابرات البريطانية داخلها ، لتنطلق بهما ، تحت حراسة مشددة ، عبر الحدود ..

الحدود الألمانية ..

وانعقد لسانا البريطانيين تمامًا ، وخفق قلباهما فى عنف ، عندما عبرت بهما السيارة حاجز الحدود المحطَّم بالفعل ، وانطلقت نحو آخر مكان يتمنيان الذهاب إليه ، فى تلك الآونة ..

نحو (برلين) .

★ ★ ★

٨ ـ أرض العدو ..

• لم يشعر سير (هوج سنكلير)، مدير المخابرات البريطانية، فى حياته كلها بالقلق والتوتر، مثلما شعر بهما فى تلك الليلة، الثامن من نوفمبر، عام ١٩٣٩م، وهو ينتظر معرفة نتائج مقابلة ضابطيه، الكابتن (بست)، والميجور (ستيفنز)، للمنشق الألمانى الميجور (شلنبرج) ومجموعته، التى تخطط لإسقاط نظام الحكم النازى الهتلرى فى (ألمانيا) ..

لم تكن وسائل الاتصال ميسورة أو متاحة، فى ذلك الزمن، ولكن المخابرات البريطانية كانت تعتمد على عميل هولندى، استأجر منزلاً مؤخرًا فى (فنلو)، تلك البلدة التى سيتم عندها اللقاء، والمتاخمة للحدود الألمانية، حتى يمكنه متابعة الموقف على نحو ما، وتبادل إشارة ضوئية متفق عليها، مع (بست) و(ستيفنز)، فور انتهاء المقابلة، لمعرفة نجاحها من فشلها ..

فبالنسبة لرئيس الوزراء البريطانى، كان ذلك الاتصال مع المنشقين العسكريين الألمان حيويًّا إلى أقصى حد؛ لإنهاء تلك الحرب المستعرة بسرعة، وبأقل خسائر ممكنة، فى (أوروبا) والعالم أجمع ..

وقبل أن تدق الساعة، معلنة منتصف الليل، كان (سنكلير) قد تلقَّى مكالمتين هاتفيتين متوترتين، من رئيس الوزراء (تشامبرلين)، يرغب فيهما فى معرفة ما أسفر عنه اللقاء ..

وعلى الرغم من توتره البالغ، كان (سنكلير) يبذل أقصى جهده؛ لتهدئة رئيس الوزراء، وإقناعه بأن كل شىء يسير على ما يرام ..

وفى الواحدة وست دقائق تقريبًا، اقتحم (فينرز) حجرة مكتب (سنكلير)، على نحو يتجاوز كل القواعد والأعراف، وكل الأصول واللياقة أيضًا، وهو يهتف فى انفعال:

ـ وصلتنا رسالة لاسلكية، من عميلنا فى (هولندا).

هبَّ (سنكلير) من مقعده، متسائلاً فى لهفة :

- ماذا لديه ؟!

هزَّ (فينرز) رأسه فى حدة، وهو يجيب فى عصبية :

- لقد رصد بعض الأضواء المتقطِّعة، فى موعد اللقاء بالضبط، ولكنها بدت له أشبه بتبادل إطلاق نيران، فانتظر حتى العاشرة، ثم تسلَّل إلى نقطة الحدود؛ ليعرف ماذا حدث هناك.

اختنق صوت (سنكلير) فى حلقه، وبدأت أطرافه ترتجف، وهو يسأل بصوت مبحوح :

- وماذا وجد ؟!

لوَّح (فينرز) بذراعيه، قائلاً فى مرارة :

- كارثة !

عجزت ساقا (سنكلير) عندئذ عن حمله، فترك جسده يسقط على مقعده، وهو يتساءل فى شحوب :

- هل قتلوا (بست) و(ستيفنز) ؟!

هتف (فينرز)، فى مرارة أكثر :

- ليتهم فعلوا هذا.

ثم مال نحو (سنكلير)، مستطردًا فى غضب امتزج بمرارته، وغلفهما معًا شعوره بالسخط والثورة :

- لقد قتلوا كل حرس الحدود الهولنديين.

هتف (سنكلير) فى ارتياع :

- مستحيل ! (هولندا) ما زالت محايدة.

اعتدل (فينرز)، ولوَّح بذراعيه مرة أخرى، صائحًا :

- قلت لكم إن النازيين مجانين، ويمكنهم أن يفعلوا كل شىء.

ارتجف صوت (سنكلير) بشدة، وهو يسأله :

- المهم (بست) و(ستيفنز) .. ماذا فعلوا بهما.

تطلَّع (فينرز) إلى عينيه مباشرة ، وعضَّ شفته السفلى فى قهر ، وهو يجيب :

- لقد اختطفوهما .

انتفض قلب (سنكلير) فى عنف بين ضلوعه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، بكل ذعر وهلع وارتياع الدنيا ، فى نفس اللحظة التى انطلق فيها رنين هاتفه الساخن الخاص ، المتصل بمكتب رئيس الوزراء مباشرة ..

وبكل انفعالاته ، حدَّق (سنكلير) فى الهاتف الساخن ، وقد بدا له أنه لن يستطيع إجابة رئيس الوزراء هذه المرة ..

لن يستطيع أبدًا ..

* * *

على الرغم من أن المسافة ، التى تفصل الحدود الهولندية عن (برلين) ، ليست بالبسيطة ، فقد كانت أوامر الفوهلر تحتم وصول ضابطى المخابرات البريطانيين إلى العاصمة ، فى أسرع وقت ممكن ، بعد وقوعهما فى قبضة رجاله ، لذا فما إن تجاوزت

السيارة الألمانية الحدود بأسيريها ، حتى كانت فى انتظارها طائرة خاصة ، تم نقل (بست) و(ستيفنز) إليها معصوبى الأعين ، ومقيَّدى المعصمين خلف ظهريهما فى إحكام ، لتقلع الطائرة فورًا ، فى اتجاه (برلين) ..

ومع هبوطها هناك ، حملت سيارة خاصة ، محاطة بحراسة مكثفة ، على نحو مبالغ ، ضابطى المخابرات البريطانيين إلى سجن خاص ، فى قلب بيت الثعالب نفسه ..

وهناك ، وسط رجال (الجستابو) وجهاز (إس - دى) ، أدرك (بست) و(ستيفنز) أنهما قد سقطا فى قبضة العدو ..

وأن مصيرهما سيكون رهيبًا حتمًا ..

وبالنسبة للجنرال (هملر) ، كان هذا أعظم نجاح يمكن أن يفخر به ، فى حياته كلها ، خاصة وأن العمليات الناجحة ، التى ظفر فيها أى جهاز مخابرات ،

بضابط من جهاز مخابرات معاد ، هى حالات نادرة للغاية ، لا تتعدى ، ولم تتعد قط ، أصابع الكفين ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

وعندما أبلغ (هملر) الفوهلر بنجاح العملية ، وبوصول ضابطى المخابرات البريطانيين إلى (برلين) بالفعل ، ابتسم (هتلر) ، وتألّقت عيناه ، وهو يربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ هذا ما كنت أنتظره منك يا جنرال ..

وبالنسبة لشخص صارم قاس ، بارد الملامح والانفعالات ، مثل (أدولف هتلر) ، كان هذا القول أشبه بوسام على صدر (هملر) ، سيفخر به ، حتى آخر لحظة فى عمره ..

ولكن الفوهلر لم يحتفظ بمودته هذه طويلاً ، وهو يتابع فى صرامة شديدة :

ـ وماذا عن ذلك الضابط (شلنبرج) ؟!

شدّ (هملر) قامته ، وهو يقول فى قوة :

ـ سنتخذ كل ما يلزم بشأنه أيها الفوهلر .

هزّ (هتلر) رأسه ، قائلاً :

ـ عظيم .. عظيم .

ثم تركه ، واتجه إلى مكتبه ، وكأنما لم يعد يعنيه الأمر كله ..

أما (بست) و(ستيفنز) فقد سيطر عليها مزيج من الغضب والمرارة والسخط ، مع قليل من الخوف ، لما يمكن أن ينتظرهما هناك ..

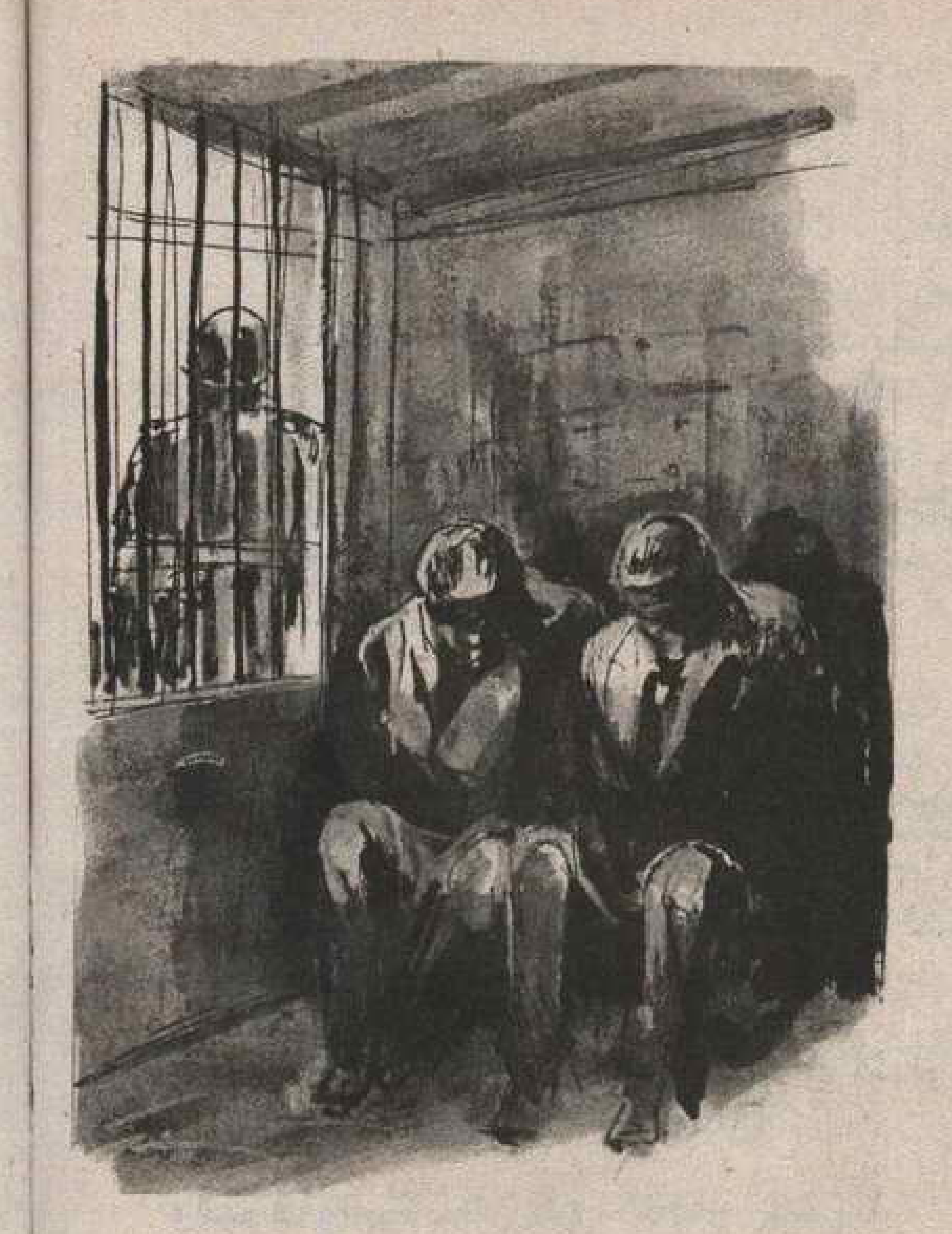
فى بيت الثعالب ..

ولأنه لم يكن من المسموح لهما ، على الرغم من تواجدهما فى مكان واحد ، أن يتبادلا حرفًا واحدًا ، فقد انطلق عقل كل منهما منفردًا ، يرسم صورة لما حدث ، وما أدّى إلى هذا الموقف الرهيب ..

لا ريب فى أن رجال المخابرات الألمانية قد كشفوا أمر (شلنبرج) بوسيلة ما ..

وأنهم قدْ راقبوه ..

وتتبعوه ..



أما (بست) و (ستيفنز) فقد سيطر عليهما مزيج من الغضب والمرارة والسخط ...

ومع مراقبته الدقيقة ، كان من الطبيعى أن يعرفوا زمان ومكان اللقاء ، وأن يرسلوا فرقة انتحارية لاختطافهما ، بعد أن ألقوا القبض على (شلنبرج) بالفعل ..

وكان هذا يعنى أن عملية المنشقين قد فشلت تمامًا ..

وأن (هتلر) سيبقى مع حزبه النازى ..

إلى حين ..

وقبل أن تتمادى أفكارهما ، حدثت جلبة واضحة فى زنزانتهما ، مع أصوات توحى بقدوم أحد الضباط الكبار ، وخاصة مع ذلك الهتاف القوى ، الذى ردده الجميع ، كتحية عسكرية لكبار القادة ..

ثم هتف أحد سجانيهما :

ـ ارفعوا العصابات عن عيونهما .

ومع قوله ، رفع بعضهم العصابات السوداء عن عيون (بست) و(ستيفنز) ..

ولثوان ، بهرهما الضوء ، فأغلقا عيونهما قليلاً ، ثم فتحاها ..

واتسعت عيونهما عن آخرهما ، وهما يحدقان في ذلك الضابط النازى ، الذى وقف أمامهما مبتسمًا في زهو ظافر ، وهو يقول :

- مرحبًا بكما فى أرضنا .

فذلك الضابط كان (شلنبرج) ..

الميجور (فالتر شلنبرج) ..

شخصيًا .

★ ★ ★

٩ - بيت الثعالب ..

● امتقع وجه رئيس الوزراء البريطانى (نفيل تشامبرلين) ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، بكل ذعر وارتياع الدنيا ، وهو يحدّق فى وجه سير (هوج سنكلير) ، مدير المخابرات البريطانية ، هاتفًا بصوت مرتجف :

- اختطفوهما ؟!

أومأ (سنكلير) برأسه إيجابًا فى مرارة ، وهو يقول :

- نعم يا سيادة رئيس الوزراء .. المخابرات الألمانية خدعتنا ، من خلال ضابطها (شلنبرج) ، وتعاملت معنا بحنكة ومهارة وصبر ، طوال عشرة أشهر كاملة ، وبعبقرية مدهشة ، جعلتهم يوقعون برجلينا فى النهاية .

عضَّ رئيس الوزراء شفته السفلى ، وهو يهزّ رأسه ، قائلا :

- بل يوقعون بنا نحن يا رجل .

حاول (سنكلير) تخفيف الأمر، وهو يقول:

ـ (بست) و(ستيفنز) لن يتفوَّها بحرف واحد، مهما ...

قاطعه رئيس الوزراء فى مرارة:

ـ هراء!

عضَّ (سنكلير) شفته بدوره، دون أدنى اعتراض على كلمة رئيس الوزراء، الذى تابع بكل أسى ومرارة الدنيا:

ـ إنها فضيحة .. مصيبة .. كارثة، لن تمضى بسلام أبدًا .. اثنان من كبار ضباط مخابراتنا، يسقطان فى قبضة الألمان، بهذه السذاجة المدهشة .. يا للكارثة! يا للكارثة! كل أسرارنا أصبحت فى يد العدو.

ثم صاح فجأة فى سخط:

ـ سأحاكمك عسكريًا يا (سنكلير) .. سأفضحك أمام الرأى العام البريطانى كله.

انتفض (سنكلير) على مقعده، وهبَّ واقفًا، وهو يقول فى حدة:

ـ تحاكمنى ؟! ولكننى أحمل أمرًا موقعًا منك، بتنفيذ هذه العملية، يا سيادة رئيس الوزراء.

اتسعت عينا (تشامبرلين)، وهو يهتف:

ـ أمر منى ؟!

صاح (سنكلير) فى عصبية:

ـ هل أرسل لك نسخة منه، يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

انكمش (تشامبرلين) المسكين على مقعده، وهو يقول:

ـ لا داعى يا (سنكلير) .. لا داعى .. لن يصنع هذا فارقًا.

ثم دفن وجهه فى كفه ، مستطردًا بكل مرارة الدنيا :

- لقد انتهى أمرنا .. أنت وأنا لم يعد لنا وجود ، فى تاريخ (بريطانيا) .

وعاد يرفع عينيه إليه ، مضيفًا بأسى :

- اللهم إلا فى الجانب الفاشل منه .

شحب وجه (سنكلير) ، وشعر بتنميل فى أطرافه ، وبصداع عنيف فى رأسه ، على نحو دار معه كيانه كله ، وأظلمت به الدنيا أمام عينيه ، وانتشرت البرودة فى جسده ، ورئيس الوزراء يكمل :

- صدقنى يا رجل .. لقد قضت علينا هذه العملية تمامًا .

لم يدر (سنكلير) ما يفعله ، إزاء هذا الموقف ، فقد دفن رئيس الوزراء وجهه فى كفيه ، ولاذ بصمت ثقيل مرير ، فتراجع مدير المخابرات ، وغادر

المكان كله ، وشعور قوى بالهزيمة والعار ينهش كيانه ، دون أدنى رحمة أو هوادة ..

وطوال الطريق ، من مكتب رئيس الوزراء إلى مكتبه ، غامت الدنيا فى وجه (هوج سنكلير) ، ثم تضاعف شعوره بالخزى والمرارة ، عندما استقبله نائبه (فينرز) فى مكتبه ، قائلاً فى عصبية :

- كنت أعلم أنها عملية فاشلة .. لقد كنت أرفضها منذ البداية .

صاح به (سنكلير) فى حدة :

- اصمت يا (فينرز) .. أرجوك .

أطبق (فينرز) شفتيه ، محاولاً كتمان ذلك البركان الثائر فى أعماقه ، فى حين دلف (سنكلير) إلى مكتبه ، وجلس على مقعده الوثير ، وحلَّ رباط عنقه ، فى محاولة لتخفيف شعوره بالحرارة والاختناق ، وذهنه يسترجع التفاصيل ..

كل التفاصيل ..

وأدرك لحظتها كم كانت الخدعة الألمانية بارعة ومتقنة ، و ...

وفجأة ، أصبح التقاط أنفاسه أمرًا عسيرًا ، وتثلَّجت أطرافه ، على نحو لم يحدث من قبل ، فشهق فى قوة ، وهو يهتف :

ـ (فينرز) .. النجدة .

وبصعوبة ، بلغت أصابعه زر الطوارئ على سطح مكتبه ، قبل ان تنطلق من حلقه شهقة أخيرة ..

ثم سقط ..

سقط مدير المخابرات البريطانى ..

بعنف ..

★ ★ ★

« أنت ؟! » ..

هتف (بست) بالكلمة فى ذهول ، وهو يحدِّق فى

وجه (شلنبرج) ، الذى خلع قفازيه الأنيقين فى هدوء ، مع ابتسامته الظافرة ، وكلماته المزهوة الشامتة :

ـ خدعة عبقرية .. أليس كذلك ؟!

هتف (ستيفنز) فى غضب :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا كل هذا ؟!

أشار (شلنبرج) إليهما ، قائلاً بابتسامته الكبيرة :

ـ أنتما هنا بالفعل .. أليس كذلك ؟!

شعر رجلا المخابرات البريطانيين بغصة مؤلمة فى حلقيهما ، جعلتهما يلوذان بالصمت بضع لحظات ، فى مرارة وذهول وغضب ، مما جعل (شلنبرج) يتحرَّك حولهما بهدوئه المعهود ، وهو يتابع ظافرًا :

ـ المرحلة القادمة كانت تحتاج إلى معلومات .. قدر هائل من المعلومات ، يفوق ما يمكن أن تحظى به

شبكة كاملة من الجواسيس المدربين ، خلال عام كامل ، لذا فقد جالت بخاطرى هذه الفكرة المجنونة .

وتوقف لينظر إليهما فى سخرية ، مضيفًا :

ـ فكرة اختطاف بعض ضباط المخابرات المعادية .

عضّ (بست) شفتيه فى مرارة ، وانعقد حاجبا (ستيفنز) فى ألم وغيظ ، فواصل (شلنبرج) دورانه حولهما ، متابعًا :

ـ فى البداية ، استنكر الكل الفكرة ، حتى الجنرال (هملر) نفسه ، ولكننى كنت أجد أن هذا الاستنكار نفسه أحد أدلة جودة الخطة ، فما دامت مستنكرة ومستبعدة منا إلى هذا الحد ، فمن المؤكَّد أنها ستواجه الاستنكار والاستبعاد نفسيهما ، من وجهة نظر الخصم .. ثم إنه هناك حركة تمرُّد ومعارضة ، فى صفوف الجيش بالفعل ، مما سيؤيِّد الفكرة إلى حد كبير ، عند إجراء التحريات حولها .

وتوقَّف مرة أخرى ، ليلتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يستطرد :

ـ ثم تم عرض الخطة على الفوهلر ، الذى أدرك عبقريتها على الفور ، فالعباقرة لا يفهمهم سوى العباقرة .

تمتم (بست) فى مقت :

ـ يا للغرور !

تجاهل (شلنبرج) تعليقه تمامًا ، وهو يتابع ، وكأنه لم يسمعه :

ـ وصدرت الأوامر بالتنفيذ ، وبقى أن نضع تفاصيل العملية ، بإتقان يكفى لخداعكم ، والإيقاع بكم ، على النحو الذى حدث .

هتف (بست) فى حدة :

ـ لن تحصل منا على معلومة واحدة .

ابتسم (شلنبرج) فى سخرية ، قائلاً :

ـ هل تعتقد هذا حقًّا ؟!

هتف به (ستيفنز) :

ـ أنت تعرفنا جيدًا ، كرجلى مخابرات .

صمت (شلنبرج) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ لا يمكننى أن أدعى أننى أعرف طبيعة كل رجل مخابرات .

ثم تألقت عيناه ، وهو يضيف فى قسوة :

ـ ولكننى أعرف طبيعة البشر .

ومال نحو الرجلين ، مكملاً فى سخرية مخيفة :

ـ وأعرف وسائلنا المتميزة ، فى انتزاع المعلومات من قلب الحجر .

وتجمدت الدماء فى جسدى رجلى المخابرات بحق ..

فما قاله كان يتفق مع ما توقعاه تمامًا ..

الساعات التالية ستحمل لهما العذاب ..

كل العذاب ..

* * *

١٠ ـ النهــاية ..

لأول مرة فــى حياتــه ، منـذ التحـق بالمخـابرات البريطانية ، تـم استدعاء (ستيوارت ج فنـرز) ، إلى مكتب رئيس الوزراء شخصيًا ..

وعلـى الرغم من دقـة الموقـف وصعوبتـه ، لـم يستطع (فنرز) منع ذلك الشعور القوى بالبهجـة ، الـذى سرى فـى أعماقه ، وهـو يدلـف إلـى المكـان ، الذى صنع له ألف صورة فى ذهنـه ، طـوال سنوات عمله ..

وفى شىء من الحماسـة ، صافح رئيس الـوزراء ، قائلاً :

ـ يشرفنى اليوم أن أكون فى خدمتك يا سيادة رئيس الوزراء .

لـم يبـد أدنـى قـدر مـن الحماسـة ، فـى مصافحـة (تشامبرلين) ، أو ملامحـه ، أو حتـى صوتـه ، وهـو يقول :

- كلنا فى خدمة (بريطانيا) دومًا يا رجل .

ثم دعاه إلى الجلوس ، قبل أن يسأله فى اهتمام :

- كيف حال سير (سنكلير) ؟!

أجابه (فنرز) فى أسى حقيقى :

- لقد لزم الفراش منذ عملية الاختطاف ، والأطباء يقولون : إن حالته تتدهور باستمرار .

مطّ (تشامبرلين) شفتيه ، وهزّ رأسه فى أسف ، قائلاً :

- رد فعل طبيعى .

قالها ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يميل إلى الأمام ، ويسأل (فنرز) مباشرة :

- ما مدى سوء الموقف فى رأيك ؟!

مطّ (فنرز) شفتيه ، وهزّ رأسه ، قائلاً :

- الموقف بلغ أقصى درجات السوء ، يا سيادة

رئيس الوزراء ؛ فسقوط عميل للمخابرات ، تم تدريبه على نحو جيد ، يعدّ خسارة كبيرة لأى جهاز ، أما سقوط ضابط مخابرات ، فى قبضة جهاز معاد ، فهو كارثة كبرى ، بكل المقاييس .

تراجع (تشامبرلين) فى مقعده بوجه شاحب ، وهو يتمتم :

- حقًّا ؟!

أومأ (فنرز) برأسه إيجابًا ، وهو يتابع :

فضابط المخابرات يعد استثمارًا باهظ التكاليف ، إلى حد كبير ، وهو يعرف الكثير من المعلومات ، عن معظم الجواسيس والعملاء ، الذين يعملون لحساب الجهاز ، الذى ينتمى إليه ، كما أن لديه فيضًا من المعلومات ، عن وسائل التدريب ، والتنظيم ، والتنسيق ، وطرق وأساليب إدارة العمل ، بل وأسماء قادة الأفرع ، ومديرى العمليات ، بالإضافة إلى فيض هائل من المعارف ، يستحيل حصره على وجه الدقة .

ازداد شحوب وجه (تشامبرلين) ، وهو يغمغم :

ـ وكل هذا سيفوز به العدو .

أومأ (فنرز) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ للأسف .

امتقع وجه (تشامبرلين) بشدة ، على الرغم من إدراكه لكل هذه الحقائق من قبل ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يسأل بصوت مختنق :

ـ هل تعتقد أن رجلينا سيصمدان ؟!

هزّ (فنرز) رأسه نفيًا فى وضوح ، وهو يجيب :

ـ مستحيل ! الأساليب التى يتبعها النازيون ، قادرة على إنطاق الحجر ، مهما بلغت صلابته .

أعاد الجواب (تشامبرلين) إلى شحوبه وامتقاعه ، فبقى على مقعده صامتًا كالحجر لفترة طويلة ، قبل أن يتساءل ، بصوت سمعه (فنرز) بصعوبة :

ـ هل تقترح شيئًا ، لتفادى الانهيار الكامل ؟!

أجابه (فنرز) فى سرعة ، وكأنه كان ينتظر السؤال ويتوقّعه :

ـ بالتأكيد .

ثم اعتدل فى مقعده ، متابعًا بحماسة ، وهو يتحدَّث بلسانه وكفيه معًا :

ـ لابد أن ننسى أمر (بست) و(ستيفنز) ، وكل ما لديهما من معلومات ، وأن نعيد بناء وتنظيم كل شىء على نحو جديد ، بحيث لا تعود لمعلومات النازيين عن نظمنا أية قيمة .. سنغيِّر وسائلنا ، وأقسامنا ، وأسلوب تعاملنا مع المعلومات ، وكذلك أسلوب تعامل رجال المخابرات معها .. كل ضابط سيعرف ما يخصّه منها فقط ، من الآن فصاعد ، ولا أحد سيطالع عمليات الآخرين ، إلا للضرورة القصوى؛ لتفادى حدوث أية كوارث مماثلة مستقبلاً .. وأسماء عملائنا أنفسهم ستوضع فى خزانة خاصة ، فى مكتب مدير الجهاز وحده ، بحيث لايعرف الضباط سوى الأسماء الكودية وحدها ، وسنعمل فورًا على تجنيد عدد جديد من العملاء ، فى مختلف بلدان (أوروبا) ، و ...

قاطعه (تشامبرلين) ، وهو يعتدل ، قائلاً :

ـ هذا يكفى .

ثم التقط ورقة معدَّة مسبقًا أمامه ، وذيلَّها بتوقيعه ، مضيفًا وقد استعاد حزمه :

ـ ستتولَّى أمر جهاز المخابرات البريطانى ، حتى يشفى (سنكلير) من مرضه ، أو ...

صمت لحظة ، ثم ناوله القرار ، مضيفًا :

ـ أو تتغيَّر الأمور ..

وبلهفة حقيقية ، التقط (فنرز) القرار ، قائلاً :

ـ أعدك بألا أخذلك أبدًا ، ياسيادة رئيس الوزراء ..

ولقد كان (فنرز) صادقًا للغاية ، فى عبارته الأخيرة هذه ؛ فقد بدأ عملية الإصلاح الهيكلى لجهاز المخابرات البريطانى (إم ـ آى ـ ٦) ، فور وصوله إلى مكتبه ، كرئيس مؤقت للجهاز ..

وفى الرابع والعشرين من نوفمبر ، توفى (سنكلير) متأثرًا بتلك الهزيمة البشعة ، التى اختتم بها ملفه ، وأصبح (سيتوارت ج فنرز) هو الرئيس الفعلى للمخابرات البريطانية .

وفى الوقت ذاته ، كان الكابتن (سى . باين بست) ، والميجور (هـ . ر . ستيفنز) ، قد انهارا من وطأة التعذيب الوحشى الرهيب ، الذى تعرَّضا له ، على يد (شلنبرج) الهادئ الوسيم ، وطاقمِ خبراءِ جهاز (إس ـ دى) ، وراحا يدليان بما لديهما من معلومات ، ويبوحان بكل ما فى جعبتهما من معارف وأسرار ..

وكان لديهما الكثير بالفعل ..

والكثير جدًا ..

ومن الواضح ، وفقًا للتقارير الألمانية ، التى تم العثور عليها ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، أن الميجور (ستيفنز) كان الأكثر سخاءً ، فى منح كل ما لديه للعدو ..

ولقد أدى ما حصل عليه الألمان ، عبر خدعتهم الكبرى هذه ، إلى القضاء على معظم أفراد شبكة جاسوسية (إم ـ آى ـ ٦) ، فى (أوروبا) كلها ، وقد كشف ضابطا المخابرات البريطانية أيضًا عن عملاء بلجيكيين وهولنديين ..

وفى بيان أدلى به (هنريش هملر) ؛ لتبرير احتلال (ألمانيا) لدولتى (هولندا) و(بلجيكا) ، فى مايو ١٩٤٠ م ، استخدم رئيس جهاز (إس ـ دى) تلك المعلومات ، التى تم انتزاعها من رجلى المخابرات البريطانيين ، لتأكيد كلماته وقوته ..

وفى الوقت ذاته ، أعلنت (ألمانيا) للعالم كله ، أن المخابرات البريطانية قد تآمرت لقتل (هتلر) وأنه قد نجا من الحملة بأعجوبة ..

ولقد تمت مكافأة (شلنبرج) بسخاء ، ومنحه (هتلر) بنفسه الصليب الحديدى ، من الطبقة الأولى ، وهو أعلى وسام للشجاعة ، فى (ألمانيا) كلها ،

تقديرًا لدوره فى عملية (فنلو) ، مما رشحه فيما بعد للقيام بعملية لاختطاف دوق (وندسور) فى عملية مدهشة أخرى ، ربما يتم نشر وقائعها ، فى القريب العاجل جدًّا ..

أما (تشمبرلين) ، فقد حطمته تلك العملية تمامًا ، وبخاصة لما تسبَّبت فيه من خسائر حربية فادحة ، وهزائم متوالية ، أجبرته على الاستقالة ، وإفساح الطريق أمام منافسه (ونستون تشرشل) ، الذى اعتلى كرسى رياسة الوزراء ، مؤيِّدًا تلك التغيرات الجذرية ، التى أجراها (فنرز) ، ومصرًّا على التصدِّى للخطر النازى ، حتى أسقطه فى عام ١٩٤٥ م ..

ولكن حتى هزيمة (ألمانيا) وخسارتها للحرب العالمية الثانية ، لم تنجح فى محو تلك الخدعة ، التى قام بها جهاز مخابراتها ، مع الأشهر الأولى للحرب ، ليحفر بها اسمه فى تاريخ عالم المخابرات إلى الأبد ..

الخدعــة التى قلبت الدنيــا كلهــا رأسًا علــى عقب ..

الخدعة الكبرى ..

جدًا ..

★ ★ ★

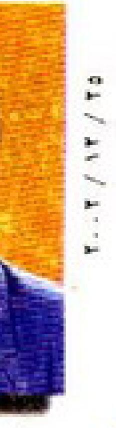
تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

الخدعة الكبرى

وموضوعات أخرى



د. نبيل فاروق

٢٠٠٤/١٢/٢٥

صفحة

صراع العقول الذى يتفوق دوما على أعتى الأسلحة والمعدات

الثمن فى مصر ٣٠٠ مـ
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

